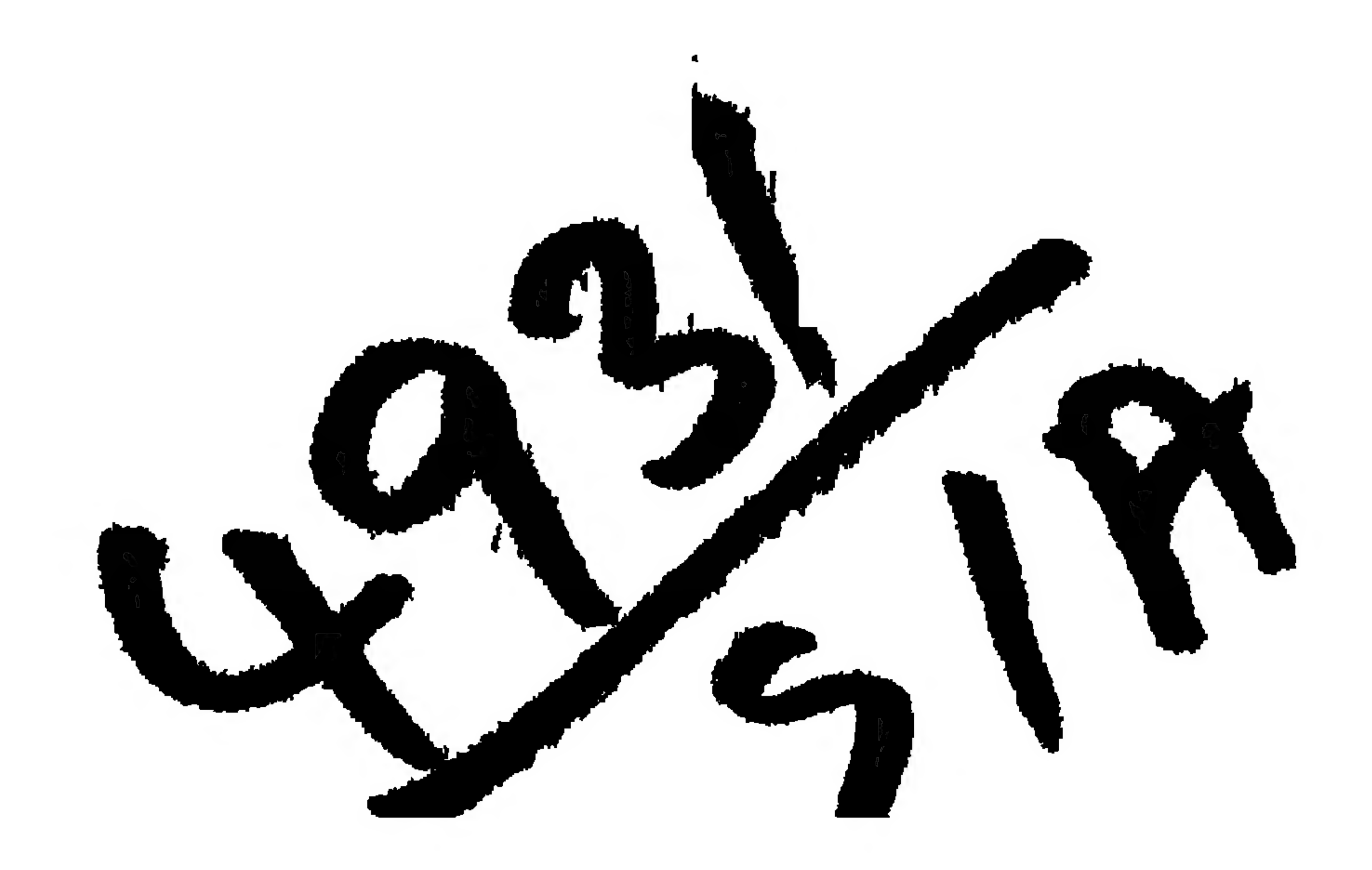


ابن خلدون

مقدّمة المقدّمة

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٧

ابن خلدون

١٣٣٢ - ١٤٠٦

ترك ابن خلدون في تاريخ العرب وآدابهم اثراً عميقاً، مثلث المظاهر، تعاونت على تقريره صفاته الثلاث المميّزة: فهو رجل سياسي حَزوم، رافق الدول العديدة، فخدم ملوكها، وعرف ان يستفيد من جميعهم؛ وفيلسوف اجتماعي، وضع أساس علم مبتكر في الآداب العامة؛ وكاتب شخصي، جرى على اسلوبه الكثيرون من المتأدبين

الرجل

شبابه في تونس (١٣٣٢ - ١٣٥٢)

اسمه – اصل أسرته

ابو زيد ولي الدين عبد الرحمن، بن ابي بكر محمد، بن ابي عبد الله محمد، بن محمد، بن الحسن، بن محمد، بن جابر، بن محمد، بن ابراهيم، ابن عبد الرحمن، بن خلدون؛ وُلد في تونس في ٢٧ يار ١٣٣٢ (اول رمضان ٧٣٢ هـ.)

اما عائلة خلدون فهي عربية الاصل تنتسب الى بني حُجر من ملوك كندة. وكانت تنزل حضرموت، الى ان ظهر الاسلام، وامتدّت فتوحاته

حتى اسبانيا؛ فهاجر اليها رأس الأسرة الحضرمية، في اوائل القرن الثامن. وكان اسمه خالد بن عثمان فأبدل «بخلدون» (١

وهنا يجدر بي ان أزيل شبهة علقت بذهن النقّاد العصري الشهير الدكتور طه حسين، فذهب الى ان ابن خلدون يشكّ في صحة اصله العربي هذا، بدليل جملة اوردها في اول ترجمته (٢ والواقع ان ابن خلدون يلاحظ نقصاً في سرد اسماء جدوده، بينه وبين خلدون فقط. ولكنه لا يتكلم عما وراء ذلك، ولا يسك قطعاً في صحة نسبته الى القبيلة الحضرمية. وحسماً لكل خلاف، نورد كلام ابن خلدون بحروفه؛ قال، بعد ذكر جدوده العشرة :

« لا اذكر من نسبي الى خلدون غير هذه العشرة (٣. ويغلب على الظنّ انهم اكثر وانه سقط منهم عدد. لان خلدون هذا هو الداخل الاندلس؛ فان كان اول الفتح، فالمدّة لهذا العهد سبعمائة سنة؛ فيكونون

(١ جرت عادة تنتمي الاسر العربية الاصل في الاندلس والمغرب، فتأخذ من اسماء ابنائها الاسم الاقل شيوعاً [illegible] وعلى هذه [illegible] ... [illegible] (... don = حدّ [illegible] (... = كبيرة [illegible] ... وريدون) [illegible].

(٢ للدكتور طه حسين: [illegible] ابن خلدون الاجتماعية، تعريب [illegible] ص [illegible].

(٣ وقد اسقط الدكتور طه حسين جداً من اجداد ابن خلدون اسمه محمد، [illegible] تسعة جدود بدل العشرة (راجع الكتاب المذكور في اول ص: ٩)

.هاء العشرين » ثلاثة لكل مئة كما تقدّم في اول الكتاب الاول (١ .
.نسبنا في حضرموت من عرب اليمن الى وائل بن حجر من اقيال العرب،
معروف وله صحبة .—» (٢

وقد اقامت تلك الاسرة في اشبيلية حتى سقطت المدينة في يد الملك
المسيحي فرديناند الثالث ، ابن الفونس التاسع سنة ١٢٤٨م. فهجرها اذ
ذاك كثير من الأسر الاسلامية ومن جملتها أسرة كاتبنا التي اتت تونس
فاختارتها مقاماً طيباً . ويشير تاريخ هـذه الأسرة الى انها نالت في حياتها
نفوذاً قوياً ، بتنقل افرادها في مناصب الحكومة كالكتابة ، والحجابة ،
والوزارة ، او بالخروج على السلطة .

فتوّته — دروسه

اما عبد الرحمن فاننا انه وُلد في تونس وبها نشأ ولا نعرف اكثر من
ذلك عن طفوليته وحداثته ، لانه لم يترك لنا شيئاً عن محيطه العائلي ، ولا
عُني مترجموه بالبحث في هذه الناحية .

ولكننا [illegible] من حياة السياسية ، فتركها منصرفاً الى
الدروس القرآنية واللغوية . [illegible] من تمّ اول [illegible]
الاولية في [illegible]
في اول ترجمته [illegible]
و [illegible]

(١ [illegible]
(٢ [illegible] ١٢٨ (١٨٦
المجلد ٧ — ص ٣٦٩ — ٣٨٠

مشهورين يسرد لنا تاريخ حياتهم ، ويفصّل معارفهم ومقدرتهم . ولا ينسى ان يذكر لنا الكتب التي درس فيها ، واكثرها كان نادراً في تونس . يذكر كل ذلك بشيء من الافتخار الحقّ ، والزهو المشروع .

دخوله في المعترك السياسي في المغرب واسبانيا (١٣٥٢—١٣٧٥)

أول وظيفة في تونس : كتابة العلامة

اصيبت اوروبا وآسيا وافريقيا ، في منتصف القرن الرابع عشر ، بوَباً طاعون ، اهلك عدداً وافراً من السكان . وكان من جملة ضحاياه ، في تونس ، والدا ابن خلدون ، فتركاه سنة ١٣٤٩ غير متجاوز السابعة عشرة من عمره . فتابع دروسه مدة ، ولكنه أُجبر على ان يفتّش عن عمل مفيد وشريف ، فيعيش في اليسار ، ويحافظ على مركز أُسرته في خدمة الملوك . وكان له من اصدقاء والده خير مُعين ، فانالوه الغاية المزدوجة ، وعيّنه السلطان ابو اسحق الثاني الحفصي ، امير تونس ، كاتباً للعلامة . ويشرح لنا ابن خلدون نفسه هذه المهمة بقوله انه كان يوقع المراسيم ، والكتب السلطانية ، بشارة السلطان وهي : «الحمد لله والشكر لله» يكتبها بين البسملة وباقي النصّ

انتقاله الى مراكش — منصبه عند السلطان ابي عِنان

على ان ابن خلدون لم يكن ليرضى بهذا المنصب البسيط وهو وريث أُسرة اشتهرت بدهائها السياسي ، ومغامراتها في سبيل المراكز العليا . وفضلاً عن ذلك فان سلطنة تونس كانت في تلك الايام ضعيفة الآساس ، ركيكة البنيان ، خائفة من جارتها سلطنة مراكش التي بلغ بها المرينيون

شأواً بعيداً . فلم يرَ كاتبنا افضل من تركَ تونسَ الى فــاس . وكان ان السلطان ابا اسحق التونسي جرّد جيشاً لمحاربة الامير ابا زيــد القُسنطيني ، واصطحب معه ابن خلدون . فسار هذا بنيّة الفرار الى مراكش ، حتى اذا كُسر جيش سيده ، هرب ملتجئاً الى بعض القرى

وما زال يتنقّل في مجاهل البــلاد مدةً الى ان ذُكر بالصالح عنه السلطان ابي عنان المريني امير مراكش . فطلبه هذا وضمّه الى هيئة علمائه ولم يلبث ان عيّنه اميناً لاسراره سنة ١٣٥٦ . فقبل المنصب كارهاً لانه كان يؤمل ارفع من ذالك ، ويقول انه لم يشغل احد من اجداده مثل هذا المنصب

عزله وحبسه (١٣٥٦—١٣٥٨)

وكان السلطان ابو عنان قد سجن في فاس احد امراء بني حفص ، ابا عبد الله الذي كان اميراً على بجاية . فاغتنم ابن خلدون هــذه الفرصة ، واخذ يُراسل الامير السجين ، ليدبّرا معاً دسيسة من شأنها ان تعيــد الى الامير المذكور سلطته ، على ان يكون المؤلف وزيراً له . فكشفت المؤامرة في اواخر سنة ١٣٥٦ والقى السلطان ابن خلدون في السجن حيث اقــام حتى موت ابي عنان (٢٨ تشرين الثاني ١٣٥٨) . فاطلقــه الحسن بن عمر وزير الدولة اذ ذاك ، واكرمه

دسائسه في فاس (١٣٥٨—١٣٦٢) — سفره

شغر عرش مراكش بموت ابي عنــان ، فكثر طلّابه . وكان القائم بامور المُلك الوزير الحسن بن عمر ، الذي اطلق ابن خلدون ، قد شاء اطالة نفوذه فاقرّ الملك لابن ابي عنــان ، السلطان السعيد . على ان بعض امراء

المرينيين بايعوا المنصور بن سليمان ، ومشوا معه على فاس . ورأى ابن خلدون جيش المنصور اقوى من حامية الحسن بن عمر ، فلم يتردد في اللحاق به ، رغماً عن الجميل الذي قلده اياه ابن عمر . ولكنه سرعان ما خان سيده الجديد ، حين رجع احد امراء مراكش المنفيين الى الاندلس ، مطالباً بعرش ابائه . فاخذ ابن خلدون على عهدته اقناع عظماء المملكة بترك المنصور ، وبنصرة الامير الجديد ابي سالم .

ولما تمّ لهذا ما اراد كافأ ابن خلدون بالاموال الجزيلة ، وعيّنه اميناً خاصاً له . فسار سيرة اثارت حسد كبار الموظفين فسعوا به ، واكثروا بحقه وشايات كان لها صدى في اذن السلطان الجديد . اما ابن خلدون فكان عنده دواء واحد لكل هذه الادواء ، وهو المؤامرة . ووافق ذلك وجود صديق قديم للمؤلف في فاس ، وشريك سابق في مؤامرته الاولى مع الامير عبد الله الحفصي ، وهو الوزير عمر بن عبد الله ؛ فاتفقا على ابي سالم . غير ان حظّ الوزير كان اوفر من حظ زميله فاستولى على العرش ، ولم يترك لابن خلدون الا النعم والاموال ، وهي ما لا يروي ظمأه اذ انه كان يعتقد ان عمراً سيبقى معه ذلك الصديق القديم

وكانت قد تعدّدت دسائسه كما رأينا ، واصبح موقفه حرجاً في فاس ؛ وكان قد بدأ كوكب السلطان ابي حمو الثاني باللمعان ، في تِلِمسان ؛ فاراد ابن خلدون الخلاص من عمر بن عبد الله والتقرب من ابي حمو . ولكنّ زميله القديم في المؤامرات ، فطن الى فكرته هذه ، فأذن له بالسفر الى حيث شاء ، عدا تِلِمسان . وأرسل في اواخر تشرين الاول ١٣٦٢ امرأته واولاده الى قُسَنْطِينة ، عند اخوالهم ، وركب البحر الى اسبانيا

في بلاط ابن الاحمر (١٣٦٢ — ١٣٦٤) - بعثته الى قشتالة

ابو عبد الله الخامس الناصري ، ملك غرناطة ، المعروف بابن الاحمر (١ كان قد التجأ مع وزيره ، لسان الدين بن الخطيب ، الى بلاط فاس ، بعد ان اسقطه احد اقربائه عن العرش . فوافق هناك وجود ابن خلدون . فساعده هذا مساعدات قيّمة كان من شأنها ان تعيده الى ملكه ؛ فدخل عاصمته غرناطة في نيسان ١٣٦٢ ؛ وبقي حافظاً لابن خلدون اجمل ذكر . وكذلك كان وزيره ابن الخطيب الذي اضحى من اوفى اصدقاء كاتبنا

فلا نستغرب اذن الاستقبال الجميل ، والاكرام الفائق ، الذي لاقاه هذا ، حين وصل الى غرناطة في ٢٧ كانون الاول ١٣٦٢ . ولم يلبث السلطان ان ضمّه الى حاشيته وجعله اول المقرّبين اليه ، فأميناً خاصاً له . حتى انه كلّفه في السنة التالية بعثة مهمة الى ملك قشتالة المسيحي ، بطره ابن الهنشه (٢ . فقام بها احسن قيام ؛ ولقي حظوة في اشبيلية عاصمة الملك المسيحي ، الذي كان عارفاً بمآثر عائلة ابن خلدون في مدينته ، فاراد ان يحتفظ به ، ويعيد اليه ميراث اجداده . فاعتذر السفير بلطف ، وعاد الى مليكه . فاجزل له العطاء واقطعه ضيعةً اسمها البيرة . وظن ابن خلدون ان وساوسه ومشاغله قد انتهت ، فاستقدم عائلته ، وسكن غرناطة ناعم البال

ولكن المتاعب والصعوبات التي الفها منذ الصغر ، لم تكن لتتركه ؛ فاخذت عوامل الحسد تدبّ من ادنياء القوم الى صدر صديقه الكبير ،

---

١) ابن الاحمر : لقب كان يُطلق على كل من امراء الاسرة الناصرية

٢) اي بدرو بن الفونس وهو المعروف « ببطرس القاسي » .

ابن الخطيب ، الذي لم يظهر له شيئاً من البغض ، على قوله ، ولكنه كان يشعر بنوع من الانقباض الخفيف ، اذا ما اجتمع به

وبينا ابن خلدون يفكر في طريقة يصرف بها هذه المصيبة الجديدة ، ورده كتاب من صاحبه القديم الامير ابي عبد الله محمد ، امير بجاية الذي كان مسجوناً عند السلطان ابي عنان في فاس ، يخبره فيه انه استرجع ملكه ، ويدعوه الى اللحاق ببلاطه . فسُرّ بهذا الحل ، وودّع ابن الاحمر وابن الخطيب ، ورجع مصحوباً برسوم التشييع في ١٣ شباط ١٣٦٥

استقباله في بجاية – وزارته – تركه بجاية (١٣٦٥–١٣٦٦)

وبعد اربعة اشهر ، وصل مؤرخنا الى بجاية ، فاستقبله ابو عبد الله استقبال الملوك ، فخرج الى لقائه كل موظفي الدولة على خيولهم ، وكان سكان المدينة يتزاحمون ، من كل الجهات ، حتى يقبّلوا يديه . ثم ولي الحجابة ، وهي رئاسة الوزارة ، فبقي يسوس الملك بحكمة حتى قُتل اميره في حربه ضدّ ابن عمه ، الامير ابي العباس ، صاحب قُسَنْطينة . فسلّم ابن خلدون المدينة الى الامير الظافر ، رغماً عن معارضة اهلها ، راجياً ان ينال حظوة عند الملك الجديد . فاكرمه هذا حيناً ثم سخط عليه ، فاضطر الى الخروج من مملكته

في بسكرة : دسائس جديدة – بين ابي حمو وعبد العزيز (١٣٦٦–١٣٧٤)

فلم يرَ ملجأ الا عند صديق له قديم اسمه احمد بن يوسف بن مُزني ، فاقام في بلدته بسكرة يدبّر الدسائس المديدة كي ينتقم من امير بجاية . وقيّض له القدر السلطان ابا حمو الثاني امير تلمسان الذي اراد غزو بجاية ، فوعد ابن خلدون بالحجابة والعلامة ، اذا ضمن له معاونة قبائل بني رياح ،

وكانت في جانب العدوّ. فعمل ابن خلدون كثيراً في سبيل ذلك ، واستدرج لمساعدة ابي حمو ، فضلاً عن قبائل بني رياح ، ابا اسحق بن ابي بكر الحفصي ، سلطان تونس . فنال بغيته وولي ذاك المنصب الرفيع سنة ١٣٦٨

ولكن الحرب ضد بجاية لم تقع ، بسبب ظهور السلطان عبد العزيز المريني امير مراكش ، وانتشار الخبر بأنهُ يريد غزو تلمسان . عند ذلك ، رأى ابن خلدون حراجة موقفه وفضّل الانسحاب . فترك ابا حمو ، وقصد الابحار الى اسبانيا . فلم يمكنه ذلك . بل وقع في قبضة رجال عبد العزيز . على انه ، بما أُوتي من الدهاء والسياسة ، نال حظوة عند هذا السلطان . وكان الجيش المراكشي قد احتلّ تلمسان ، فنسي مؤرخنا اميره القديم كما نسي جميع من تقدَّمه . فانتدبه المولى الجديد ليستجلب اليه قبائل بني رياح ، كما فعل سلفه . ويقول لنا ابن خلدون انه لم يمكنه رفض طلب السلطان رغماً عما كان قصده من الانقطاع للدرس والتعليم . فقام بمهمّته ورجع الى بسكرة فارتاح مدة مع عائلته . وكان في اثناء ذلك ، يراسل صديقه لسان الدين بن الخطيب ، وزير ابن الاحمر ، في شؤون الادب وكلّ منهما يثني على صاحبه . حتى وصل الخبر ان ابن الاحمر نقم على ابن الخطيب ، فتركه هذا والتجأ الى عبد العزيز سلطان مراكش . فجرَّب ابن خلدون ان يساعده بنفوذه ، ولكنه لم ينجح .

وفي غضون ذلك توفي السلطان عبد العزيز (١٣٧٢) . وكان ابن خلدون قد انتقل بأهله الى مِليانة ؛ فقصد فاس علّهُ يستعيد نفوذه الاول . فخدم مدّةً عبد الرحمن وابا العباس اللذين اقتسما المملكة . ولكن سرعان ما ساء حظه ، فاتُّهم بالميل الى الاول ، فحبسه الثاني مدَّة ثم اطلقه . اخيراً

نال ابن خلدون اذناً بالسفر الى اسبانيا وسافر (١٣٧٤) راجياً ان ابن الاحمر يستقبله بما عهده فيه من العناية والاخلاص . فاستقبله هذا بلطفه المعهود ولكنه لم يُخبَر بما بذل ابن خلدون من الاهتمام في سبيل وزيره السابق ابن الخطيب ، حتى نقم عليه واجبره على الرجوع الى افريقيا .

عند ذاك وجد ابن خلدون ذاته في قبضة السلطان ابي حمو ، وقد رأينا سوء تصرّفه مع هذا الامير في الماضي . ولكن السلطان لم ينتقم عليه بل غفر له ، وطلب منه ان يُتابع ما كان باشر به من استمالة القبائل ؛ فوعده خيرًا وسافر

اعتزال السياسة (١٣٧٥ — ١٣٨٢)

الانقطاع في قلعة ابن سلامة (١٣٧٥–١٣٧٨) — المقدّمة والتاريخ

على ان ابن خلدون كان قد سَئم السياسة فلم يخرج من تلمسان ، حتى عرّج على بني عريف ، فنزل عندهم في «قلعة ابن سلامة» التي تُسمّى اليوم «بتاوْغزوت» . ثم ارسل فاعتذر للسلطان

وهناك انفرد مدة اربع سنوات للتفكير والتأليف . فبدأ كتابه الكبير في التاريخ العام ؛ بعد ان انهى مقدّمته الشهيرة . ولكن المقدّمة لم تبقَ على ما كتبها ابن خلدون في عزلته هذه . بل اصلحها مرارًا وزاد عليها وحذف منها ، حسب ما كان يظهر له بالاختبارات التالية في المغرب والمشرق

الرجوع الى تونس (١٣٧٨–١٣٨٢)

يقول لنا ابن خلدون انه حينما انهى مقدّمته ، ووصل الى تاريخ

العرب والبَرْبَر ، كان قد نسي كثيراً من المعلومات ، فشعر بحاجة الى مراجعة بعض الكتب الموجودة في المدن الكبرى. وكان قد نزل به مرض شديد ، فرأى الرجوع الى مسقط رأسه تونس ، والدخول في رعية السلطان ابي العباس. على ان الدكتور طه حسين يلاحظ ان ابن خلدون لم يكن يمكنه الذهاب الى « بلد غير تونس اذ أُغلقت دونه افريقيا الوسطى واسبانيا ومراكش» (١

وعلى كل فان ابن خلدون وصل الى تونس في اواخر سنة ١٣٧٨ ونال حظوة لدى سلطانها. فاقام هناك مع عائلته منصرفاً عن السياسات ؛ وعن الشعر ، الى الدروس العلمية والتعليم ويقول لنا انه انهى هناك تاريخ البَرْبَر والزِناتة وقدّم منه نسخة لمكتبة السلطان

ولكن عقارب الحسد التي نغَّصت على كاتبنا حياته الماضية لم توفّره، في هذه العزلة ، بالرغم عن تجنّبه المراكز السياسية. فاتخذت لها شكلاً علمياً ، ونفثت سمّها في صدر الفقيه محمد بن عرفة ، مفتي الديار التونسية ، الذي كان رفيقاً لابن خلدون فيما سبق ، حتى حقد عليه لفوزه بالشهرة دونه . فاقبل يسوّد صفحته لدى السلطان ، وينشر عنهُ تهماً سياسيّة وافرة الخطر.

فشعر المؤلف بذلك ورأى انتهاء راحته في تونس فاستأذن محتجاً بالحج ، وسافر الى المشرق في ٢٥ تشرين الاول ١٣٨٢.

---

١) الدكتور طه حسين : الكتاب المذكور ص : ١٦

في المشرق (١٣٨٢—١٤٠٦)

في القاهرة : المدرّس والقاضي (١٣٨٣—١٣٨٧) — غرق عائلته

وصل ابن خلدون الى القاهرة «عاصمة الاسلام» في ٥ شباط ١٣٨٣، بعد ان اقام نحو الشهر في الاسكندرية. وكانت شهرته قد سبقته اليها، فرغب اليه طُلّاب الازهر ان يدرّسهم، فقام بذلك مدّة، ثم عُيِّن استاذًا للفقه المالكي حتى سنة ١٣٨٤؛ فعهد اليهِ الملك الظاهر برقوق بمنصب القضاء المالكي. وكان لقاضي الشافعية المركز الاول، والنفوذ الاوسع، فاراد ابن خلدون منافسته في ذلك، فاظهر الصرامة في احكامه، وضرب على ايدي المرتشين من الموظّفين، واعرض عن قبول الشفاعات. فثار عليه اصحاب المصالح والغايات حتى عزله السلطان. ولم يبقَ له الا معاش المدرّس، فانفرد عن محيط المعترك وعاش في العزلة قانعاً بالسلامة.

وكأن المصائب ارادت ابتلاءه بشدّة في هذه الاثناء، فورده الخبر ان عائلته، التي كان ارسل يستقدمها من تونس، قد غرقت كلها. ففقد بذلك «المال والسعادة والبنين» وذكر الله في مصابه فاعتزم الحجّ.

في الحج (١٣٨٧—١٣٨٨) — الرجوع الى مصر والى عيشة الانفراد (١٣٨٨—١٣٩٤)

وبعد ان ادّى ابن خلدون واجباته الدينية وزار مكة والمدينة، رجع الى القاهرة فقابل سلطانها، وابلغهُ انهُ دعا لهُ ولوُلده في الاراضي المقدّسة. ولكنّ السلطان لم يتأثر كثيرًا بهذه العناية ولم يكافئه الا بالكلمات الطيّبة. فرجع ابن خلدون عائشاً في العزلة والانفراد، في مقاطعة الفيّوم، يشتغل بالدرس والتأليف حتى سنة ١٣٩٤.

الرجوع الى القضاء (١٣٩٩–١٤٠٠)

وفي سنة ١٣٩٤ تنتهي معظم النسخ المعروفة من ترجمة ابن خلدون بقلمه . على ان الدكتور طه حسين يذكر نسخة كانت موجودة في مكتبة القاهرة ، وقد وقف على صورة فتوغرافية عنها بواسطة الاستاذ كازانوفا . وفي هذه النسخة يتابع ابن خلدون ذكر ما جرى له حتى سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٥) اي قبل موته بسنة واحدة فيعلمنا ان ملك مصر استدعاه من الفيوم سنة ١٣٩٩ واعاده الى منصبه في القضاء المالكي . ولكن لم يلبث الملك برقوق ان توفي (٢١ حزيران ١٣٩٩) ، وعادت المنافسات تقلقل مركز مؤلفنا حتى عُزل في ٤ ايلول ١٤٠٠

ظهور تيمورلنك في الشام – اتصال المؤلف به

وفي تلك الاثناء ، كانت الاخبار تتوارد عن ظهور طاغية التتر الشهير تيمورلنك ، وعن غزوه بلاد الشام واستيلائه على حلب (١٤٠٠) . فاهتم ملك مصر ، فرج بن برقوق ، بالسير اليه والدفاع عن دمشق فمشى بجيشه مستصحباً بعض العلماء والقضاة ، ومن جملتهم ابن خلدون

وبينا ملك مصر يحصّن دمشق ، ويستعد لمحاربة تيمورلنك ، ورده نبأ مؤامرة تُدبّر عليه في مصر ، فعاد اليها مسرعاً وترك المدينة عرضة لغزو التتر . فاراد بعض علمائها تلافي الامر وساروا للقاء تيمور ، راجين ان يترك المدينة سالمة ويعطونه من الفدية ما يُريد ، فلم ينالوا بغيتهم . فرأى ابن خلدون ان يقوم بنفسه ، بهذه المهمة ؛ فتدلّى خفية من الحصون ، وسار الى الطاغية فحادثه طويلاً

واعجب تيمورلنك بمعارف ابن خلدون ، وطلب اليه ان يكتب له

مؤلفاً عن افريقيا ، ففعل . وبقي ضيفاً على الملك مدة ٣٥ يوماً . ولكنه نسي اوتناسي مهمته بخلاص دمشق ، فدخلها جند التتر وحرقوها وذبحوا اهلها

وكأن ابن خلدون رغب في صحبة تيمورلنك ، فلم يشأ هـذا بل صرفه ، بعد ان عفى عنه واعطاه بعض الجوائز . وقد قـال المؤرخ عن الطاغية : « يُخطئ اولئك الذين يقولون ان الرجل عالم جداً . فهو رجل وافر الذكاء ، مولع بالمجادلة فيا يعلم وما لا يعلم »

(العودة الى مصر — تولي القضاء — وفاته (١٩ اذار ١٤٠٦)

وبعد ان نال المؤلف اجازة موقعة بخط تيمورلنك ، عاد الى مصر في ١٧ اذار ١٤٠١ . فرجع الى منصبه في القضـاء المالكي . وكان احد منافسيه ، الفقيه البساطي ، يطمح الى ذاك المنصب ؛ فتماركا كثيراً عليـه حتى كان كل منهما يتولاه بضعة اشهر ثم يتنازل عنه للآخر . ولم يكد ابن خلدون ينال ذاك المنصب للمرة السادسة حتى وافاه الاجل في ١٩ اذار سنة ١٤٠٦

اخلاقه وصفاته

الثقة بالنفس

عاش ابن خلدون في زمن تقسمت فيه الوحدة العربيـة الى دويلات وامارات صغيرة ، وتتابعت الأسر المالكة على العروش الوطيئة بسرعة عجيبة . فكان يفوز بالحكم صاحب النفوذ الفردي ، والشخصية البارزة ، الذي يُغامر في طلب المعالي ولو عن طريق الهلاك ، واثقاً بنفسه ، معولاً على مقدرته لا غير . فتأثر المؤرخ بهذه البيئة ، وكان له من سلفائه اقيال كندة

ووزراء الاندلس ميراث رفعة وطموح الى المناصب العالية ، فسار على اثارهم، لا يتكل الا على نفسه ، ولا يثق الّا بما اوتي من البلاغة والسياسة واساليب الدسّ .

الدهاء — الانانية — حب الظهور

وكان بحكم الطبع ان ترعرعت فيه هذه المبادئ ، ووضحت امامه تلك المسالك ، التي يعدّها الاخلاقيون من العيوب المحطّة ، ويرفعها السياسيون الى مقام الدهاء والإدارة ، فاخذ بالتنقُّل في البلاطات العديدة مدبّراً المؤامرات، مهيئاً الاتفاقات السرية ، باي شكل كانت وباي نتيجة اتت ، بشرط ان تنيله بغيته من الاستيلاء على الحكم ، وتوصله الى مركزه بين كبار القوم

ولم يكن ليهتمّ لخير الوطن الذي يخدمه ؛ اذ لا وطن يُعرف في ذلك العهد، ولا مصلحة عامّة تخدم. انما كان جلّ اهتمام كبار الرجال، من امراء ووزراء ، ان يخدموا نفوسهم . فعلى هذا المبدأ سار ابن خلدون ، فكان انانياً وهو لا يُدرك فظاعة الاثرة وحب الذات ، لانه لم يعش في عصر يدرك فظاعة ذلك . وبيان هذا الامر ما نقرأه في ترجمته ، التي كتبها بنفسه ، من الاسهاب في تنقلاته بين الدويلات المختلفة ، وتركه اميراً كان قد خدمه ، في سبيل ارضاء امير آخر. يذكر كلّ ذلك دون احتياط او تمويه كأنه يفعل امراً جارياً ، بل مرغوباً فيه في محيط السياسات

وقد ولّدت هذه الصفات في ابن خلدون ، صفةً أخرى طالما ميزت عظماء الرجال ، وهي حبّ الظهور . واي دليل اوضح على ذلك من تلك الترجمة الطويلة لحياته التي اطال فيها بيان كل ما يخصه ، دون ان يعفينا

من قراءة الرسائل العديدة التي كان يتبادلها مع علماء زمانه ، والقصائد الطويلة التي كان يمدح بها الملوك في الاعياد الرسمية . ونحن اذا عرفنا ان ابن خلدون كان اول كاتب الف تاريخ نفسه ، في الآداب العربية ، ادركنا معظم الاثرة في الرجل ، ومبلغ حبّ الظهور

تأثره بالدين

رأينا ان اول دروس ابن خلدون كانت ، كدروس كل مسلم ، في القرآن وشروحه ، والفقه الديني ، وواجبات المتديّن . فأثرت فيه تلك التربية الدينيّة طول حياته ، وظهر تأثيرها حتى في احكام المؤرخ . مما دفع الاستاذ فلِنْت الى القول ، في كتابه « تاريخ فلسفة التاريخ » (١) ، ان ابن خلدون كان صادق التقوى ، راسخ الايمان . وهو اعتقاد انكره عليه الدكتور طه حسين بحجة انه « لم يأنف من ارتكاب الخيانة التي حرّمها القرآن ، متى رآها وسيلة لنيله السلطة . » (٢)

على ان الدكتور لو امعن نظره قليلاً ، في عقليّة ذاك العصر ، لادرك ان تلك الاعمال ، التي ندرجها نحن والاخلاقيون والقرآن بسهولة في باب الخيانة ، لم تكن تُعتبَر ، في تلك الظروف ، الا من الطرق المشروعة للفوز بالسلطة ، بل هي لا تعتبر اليوم ، في عصرنا المتمدن ، الا من باب الدهاء السياسي . وفضلاً عن هذه الاعتبارات ، فان ابن خلدون نفسه لا يموّه في ذكرها ولا يتكلّف اخفاءها ، ولا التخفيف منها

(١ Flint : History of the philosophy of history — Edinbourg et London 1893.

(٢ الدكتور طه حسين : ك . م . ص : ٢٥ —

فينتج اذن ان هذا الاعتراض لا يمنع كون ابن خلدون تأثر وتأثر جدًا بتربيته الدينية، تأثرًا رافقه، حتى في اعطاء احكامه كما قدمنا. وقد رأيناه ينفي معاقرة الخمر عن الرشيد، بحجة انه كان « يصلي مائة ركعة نافلة، وكان يغزو عاماً ويحج عاماً. »(١ وينفي الشهوات البشرية عن العبّاسة، بحجة انها « بنت خليفة، واخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز، والخلافة النبويّة، وصحبة الرسول، وعمومته، وامامة الملّة، ونور الوحي، ومهبط الملائكة، من سائر جهاتها. »(٢



١) انظر المنتخبات ص: ١٩ ٢) انظر المنتخبات ص: ١٥

المؤرخ ـ الفيلسوف الاجتماعي

آثاره

١ — شعراً

لابن خلدون قصائد عديدة نظمها في مـدح الامراء والملوك الذين خدمهم ، او في تهنئتهم بالاعياد الرسمية ، او في استعطافهم. ولـه ايضاً مراسلات شعرية مع الوزير لسان الدين ابن الخطيب. وقد ذكر شيئاً كثيراً من ذلك في ترجمة حياته. وشعره يتراوح، على قوله ، بين الجودة والركاكة ، وهو صواب.

٢ — نثراً

ذكر له صديقه لسان الدين ابن الخطيب في كتابه « الاحاطـة في تاريخ غرناطة » عدداً من الكتب في مختلف العلوم وعلّق عليها باعجاب شديد . منها :

ا — شرح قصيدة « البُردة » المشهورة للبوصيري

ب — تلخيص كتاب الرازي في الفقه المعروف « بالمحصّل»

ج — شرح ارجوزة في الفقه لابن الخطيب

د — تلخيص بعض رسائل ابن رُشد

ه — رسالة في المنطق

و — رسالة في الحساب

ولكن لم يصل الينا شيء من كل هـذه المؤلفات . ولم يشتهر ابن خلدون في عصرنا الا بكتابه الوحيد في التاريخ العام الذي سماه ذاك الاسم الغريب وهو :

كتاب العبر
وديوان المبتدا والخبر
في ايام العرب والعجم والبَرْبَر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر

اقسامه

وقد قسم المؤلف تاريخه هذا الى مقدّمة وثلاثة كتب :

١ — المقدّمة في فضل علم التاريخ ، وتحقيق مذاهبه ، والإلماع بمغالط المؤرخين. وهي ما ننشره في هذا الجزء من الروائع

٢ — الكتاب الاول : في العمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك ، والسلطان ، والكسب ، والمعاش ، والصنائع ، والعلوم ؛ وما لذلك من العلل والاسباب . وهذا الكتاب مع مقدّمته هو المعروف « بمقدمة ابن خلدون » .

٣ — الكتاب الثاني : في اخبار العرب واجيالهم ودُوَلهم ، منذ مبدأ الخليقة الى هذا العهد (القرن الرابع عشر) . وفيه الالماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم : مثل النبط ، والسريانيين ، والفرس ، وبني اسرائيل ، والقبط ، واليونان ، والروم ، والترك ، والافرنجة .

٤ — الكتاب الثالث : في اخبار البَرْبَر ومواليهم من زناتة ؛ وذكر اوّليتهم واجيالهم ، وما كان بديار المغرب خاصةً من المُلك والدُّوَل . — وفي آخر هـذا

الكتاب تكون عادةً ترجمة حياة ابن خلدون بقلمه المسماة : « التعريف بابن خلدون . »

طبعاته

نُشر كل هذا التاريخ بالطبع في سبعة مجلّدات في بولاق سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م) بعناية اللغوي المصري المعروف الشيخ نصر الهوريني .
وكان العلّامة البارون دي سلان قد نشر منهُ تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، وهو الكتاب الثالث ، في مجلّدين كبيرين ، في الجزائر سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٧) و١٢٦٢هـ (١٨٥١)

قيمته

ولكن قيمة ابن خلدون في هذا التاريخ لا تتجاوز ما نعرفه عن قيمة من سبقه من المؤرخين كالمسعودي والطبري ، مع ما نادى به فيلسوفنا من الاصلاح . والغريب انهُ ينسى ، في تاريخه ، ما يذكره في مقدّمته ، من المبادئ العامّة ، وما يقرّره من القواعد العقلية ، لتحقيق حادثة تاريخية او تكذيبها . فيظهر في «مقدّمته» فيلسوفاً اجتماعياً مبتدعاً ، ويظل في « تاريخه » مؤرخاً اعتيادياً متبعاً .
ولهذا لم يهتمّ العلماء بتاريخه اهتمامهم العظيم بذاك المؤلف الطريف المعروف بالمقدّمة .

وسنخصّ قسماً من العدد القادم لدرس هذه « المقدّمة » وطريقة ابن خلدون مؤرخاً ، وفيلسوفاً اجتماعياً .

مآخذ

ابن خلدون : التعريف بابن خلدون - ترجمة الكاتب بقلمه — منشورة في آخر تاريخه : المجلد السابع من طبعة نصر الهوريني — بولاق ١٢٨٤هـ. (١٨٦٧) ص: ٣٧٩

الدكتور طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية (تعريب محمد عبدالله عنان) — مصر ١٩٢٥

ڤون ڤيسندُنك : ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي في القرن الرابع عشر (تعريب محمد عبدالله عنان) — في آخر الكتاب السابق .

شكري مهتدي : عبد الرحمن بن خلدون — المقتطف ، سنة ١٩٢٧ — المجلّد الثاني — ص : ١٦٧ و٢٧٠

مجلة الهلال — السنة الحادية والعشرون : ص : ٣١٠

البستاني : دائرة المعارف : ابن خلدون.

M. G. de Slane : Autobiographie d'Ibn Khaldoun — Trad. fr. — Notices et Extraits de la Bibl. impériale t. XIX — Paris, 1862.

F. E. Schulz : Sur le grand onvrage historique et critique d'Ibn Khaldoun — J. As. 1825 II p. 213 et 279.

Alfred Bel : Ibn Khaldūn — Encycl. de l'Islam.

B^on. Carra de Vaux : Ibn Khaldoun — « Les Penseurs de l'Islam » t. I, Paris, 1921 p. 278.

Clément Huart : Ibn Khaldoûn — « Littérature Arabe » 4e éd., Paris, 1923 p. 345.

كتاب العبر

وديوان المبتدا والخبر

في ايام

العرب والعجم والبربر

ومن عاصرهم

من ذوي السلطان الاكبر

المقدمة

في فضل علم التاريخ

وتحقيق مذاهبه ، والإلماع بمغالط المؤرخين

خُطبة الكتاب

يخصّص ابن خلدون عدّة صفحات ، في اول كتابه ، لانتقاد من سبقه من المؤرخين ، وبسط رغبته في تصحيح بعض الاخبار ، وشرح طريقته الجديدة «ومذهبه العجيب » في كتابه هذا . ثم يفصّل ترتيب عمله وتقسيم مؤلفه على نحو ما ذكرناه في المقدّمة ؛ ويختم بالدعاء المألوف . وكل ذلك بانشاء مسجّع ، وجملة كثيرة التكلّف ، بيّنة التعسّف . ولما كانت الافكار الموجودة فيها يردّدها المؤلف في باقي فصوله ، فاننا لم نرَ فائدة من شرحها ، فتركناها .

المقدمة

في فضل علم التاريخ

وتحقيق مذاهبه، والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط، وذكر شيء من اسبابها

اهمية التاريخ — اغلاط المؤرخين

إعلَم أن فنّ التاريخ فنٌّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية. إذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم، والانبياء في سيَرهم، والملوك في دُوَلهم وسياستهم. وحتى تتمّ فائدة الاقتداء، في ذلك، لمن يرومُه، في احوال الدين والدنيا؛ فهو مُحتاجٌ الى مآخذ متعدّدة، ومعارف متنوّعة، وحسن نظر وتثبّت يُفضيان بصاحبهما الى الحقّ، وينكّبان به عن المزلّات والمغالط. لأنَّ الأخبارَ، إذا أُعتُمد فيها على مجرّد النقل، ولم تُحكم اصول العادة (١)، وقواعد السياسة (٢)، وطبيعة العُمران والأحوال في الاجتماع الانساني، ولا قِيسَ الغائب فيها بالشاهد (٣) والحاضرُ بالذاهب (٤)، فربّما لم يؤمَن فيها من العثور، ومزِلّة القدم، والحَيد

---

١) العادة: اي عادة حدوث الشيء المذكور، وهو ما نعبّر عنه اليوم بالاختبار
٢) السياسة: المُراد بها فنّ الحكم والإدارة. وهو المعنى الاصلي. —
٣) الغائب بالشاهد: اي البعيد بالقريب. — ٤) الذاهب: الماضي.

عن جادّة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرّخين، والمفسّرين، وأيمّة النقل، من المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرّد النقل، غثّاً او سميناً (١؛ ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها باشباهها، ولاسبروها بمعيار الحكمة (٢ والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار؛ فضلّوا عن الحقّ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط. ولاسيما (٣ في إحصاء الاعداد من الاموال والعساكر، اذا عرضت في الحكايات. إذ هي مظنّة الكذب، ومطيّة الهذر؛ ولا بدّ من ردّها الى الاصول، وعرضها على القواعد

جيش بني إسرائيل

وهذا كما نقل المسعودي (٤ وكثير من المؤرخين، في جيوش بني إسرائيل، أن موسى، عليه السلام، أحصاهم، في التيه، بعد أن أجاز من يطيق حملَ السلاح خاصّةً من ابن عشرين فما فوقها، فكانوا ستمائة الف أو

---

١) الغثّ : المهزول ؛ الضعيف — المقصود بالغث والسمين : التافه والنفيس .

٢) سَبَرَ : البئر : امتحنها ليعرف غورها ؛ ثم سبر الشيء : وزنه . الحكمة : المقصود بها : فلسفة . —

٣) لا سيّما : كان ابن خلدون قد كتب « سيّما » دون لام ؛ فأصلحها الشيخ نصر الهوريني في طبعته البولاقية . —

٤) المسعودي : (ابو الحسن علي) من اشهر مؤرخي العرب ؛ وافكه كتابهم . وُلد في بغداد ؛ في اواخر القرن التاسع ؛ وبعد ان جاب اكثر العالم المعمور في عصره ؛ توفي في القاهرة سنة ٩٥٦ او ٩٥٧ . اشهر مؤلفاته : التاريخ المعروف « بمروج الذهب » ؛ طُبع وترجم الى الافرنسية بعناية المستشرقَين (Pavet de Courteille) و (Barbier de Meynard) سنة ١٨٦٥ . —

يزيدون (١) ويَذْهَلُ ، في ذلك ، عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش . فلكلّ مملكة من الممالك حصّة من الحامية (٢) تتّسع لها وتقوم بوظائفها ، وتضيق عمّا فوقها . تشهد بذلك العوائد المعروفة ، والاحوال المألوفة . ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا العدد يبعد ان يقع بينها زحف او قتال ، لضيق ساحة الارض عنها ، وبُعدِها اذا اصطفّت ، عن مدى البصر ، مرتين وثلاثا او ازيد . فكيف يقتتل هذان الفريقان ؟ او تكون غلبة احد الصفّين ، وشيءٌ من جانبه لا يشعر بالجانب الآخر ؟ والحاضر يشهد لذلك ، فالماضي اشبه بالآتي من الماء بالماء !

ولقد كان مُلك الفرس ودولتهم اعظمَ من مُلك بني إسرائيل بكثير ؛ يشهد بذلك ما كان من غلب بختنصّر (٣) لهم ، والتهامه بلادهم ، واستيلائه على أمرهم ، وتخريب بيت المقدس ، قاعدة ملّتهم وسلطانهم . وهو من بعض عُمّال مملكة فارس ؛ يُقال انه كان مَرْزُبانَ (٤) المغرب من تخومها . وكانت ممالكهم بالعراقين ، وخراسان ، وما وراء النهر (٥) ، والأبواب (٦) ، اوسع من ممالك بني إسرائيل بكثير . ومع ذلك لم تبلغ

---

١) راجع احصاء بني اسرائيل في التوراة (سفر العدد : الفصل الاول) . —

٢) الحامية : اي الجيش

٣) بختنصّر : المقصود بختنصّر الثاني الكبير ملك بابل ٦٠٦–٥٦٢ ق . م .) الذي ساق اليهود اسرى الى بابل . ثم مُسخ ثورًا مدة سبع سنوات .

٤) مَرْزُبان : ج مرازبة : لقب الوالي عند الفرس الاقدمين . —

٥) ما وراء النهر : المقصود بالنهر جيحون . وهو نهر في بلاد تركستان ينحدر من هضبة پامير الى بحر آرال (طوله : ٢١٠٠ كيلومتر)

٦) الابواب : المراد بها ابواب بلاد قزوين او الخزر (دربند) .

جيوش الفُرس قطّ مثل هـذا العدد ، ولا قريباً منه . واعظم ما كانت جموعهم ، بالقادسية ، (١ مائة وعشرين الفاً ، كلهم متبوع ؛ على ما نقله سيف (٢ قال: «وكانوا في اتباعهم اكثر من مائتي الف .» وعن عائشة والزهري (٣ ، ان جموع رستم (٤ التي زحف بها لسعد (٥ ، بالقادسية ، انما كانوا ستين الفاً ، كلهم متبوع

فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هـذا العدد ، لاتّسع نطاق مُلكهم ، وانفسح مدى دولتهم . فان العالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل ، القائمين بها في قلّتها وكثرتها ، حسبما يتبين في فصل الممالك من الكتاب (٦ . والقوم لم تتّسع ممالكهم الى غير الأردنّ وفلسطين من الشام ، وبلاد يثرب وخيبر من الحجاز ، على ما هو المعروف

وايضاً فالذي بين موسى واسرائيل انما هو ثلاثة آباء على ما ذكره المحققون . فانه موسى بن عمران (٧ ، بن قاهت (٨ ، بن لاوي ، بن يعقوب

---

١) القادسية : أسم بلدة كانت قريبة من الفرات بين الحيرة والعذيب ، اشتهرت بمعركة كبيرة بين الفرس والعرب فاز فيها هؤلاء سنة ٦٣٦ ، فمهّدت لهم الدخول الى بلاد فارس . —

٢) سيف : هو سيف بن عُمر التميمي من اول مؤرخي المسلمين ، كتب عن غزواتهم ، وحروب الردّة ، ومعركة الجمل . وقد استعان به الطبري . —

٣) الزهري : ابن شهاب الزهري، القرشي : تابعي محدّث فقيه (+٧٤٢) . —

٤) رستم : قائد جيوش الفرس في القادسية وقد قتل في تلك المعركة . —

٥) سعد : هو سعد بن ابي وقّاص ، قائد جيش العرب في تلك الموقعة . —

٦) من الكتاب : اي كتاب ابن خلدون .

٧) عمران : وفي التوراة : عَمْرام . —

٨) قاهت : وفي التوراة : قَهات . —

وهو اسرائيل الله: هكذا نسبه في التوراة (١ . والمدّة بينهما على ما نقله المسعودي قال: « دخل إسرائيل مصر مع وُلده الأسباط وأولادهم، حين اتوا الى يوسف، سبعين نفساً. وكان مقامهم بمصر، الى ان خرجوا مع موسى عليه السلام الى التيه، مائتين وعشرين سنة؛ يتداولهم ملوك القبط من الفراعنة.» ويبعد ان يتشعّب النسل في اربعة اجيال الى مثل ذلك العدد

وان زعموا ان عدد تلك الجيوش، انما كان في زمن سليمان، عليه السلام، ومن بعده؛ فبعيد ايضاً. اذ ليس بين سليمان واسرائيل إلّا احد عشر اباً: فانه سليمان بن داود، بن يشّا (يسّى)، بن عوفيذ، ويقال عوبد (عوبيد)، ابن باعز، ويقال بوعز ابن سلمون، بن نحشون، بن عمّيناداب، ويقال حميناذب، ابن رام (أرام) بن حَصرون، ويقال حَشرون ابن بارَس، ويقال بَيْرَس (فارَص) ابن يهوذا بن يعقوب. ولا يتشعّب النسل في احد عشر من الوُلد الى مثل هذا العدد الذي زعموه. اللهمَّ الى المئين والالاف فربما يكون. واما ان يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد. واعتبر ذلك في الحاضر الشاهد، والقريب المعروف، تجدْ زعمهم باطلاً، ونقلهم كاذباً. والذي ثبت في الإسرائيليات (٢ أن جنود سليمان كانت اثني عشر الفاً خاصّة، وان مقرّباته كانت الفاً واربعمائة فرس مرتبطة على ابوابه (٣ . هذا هو الصحيح من اخبارهم؛ ولا يُلتفت الى خرافات

---

١) اطلب: سفر الخروج (الفصل: ٦ عدد ١٤ — ٢١) . —

٢) الإسرائيليات: اي اخبار بني اسرائيل التاريخية . —

٣) اطلب التوراة: « وجمع سليمان مراكب وفرساناً فكان لهُ الف واربع مئة مركبة، واثنا عشر الف فارس. . . » (سفر الملوك الثالث: الفصل العاشر: ٢٦)

العائمة منهم . وفي ايام سليمان ، عليه السلام ، كان عنفوان دولتهم ، واتساع ملكهم .

المبالغة في الأرقام

هذا وقد نجد الكافّة من اهل العصر ، اذا افاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم او قريباً منه ، وتفاوضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين او النصارى ، او اخذوا في احصاء اموال الجبايات ، وخراج السلطان ، ونفقات المترفين (١ ، وبضائع الاغنياء الموسرين ، توغّلوا في العدد ، وتجاوزوا حدود العوائد ، وطاوعوا وساوس الإغراب (٢ . واذا استكشف اصحاب الدواوين (٣ عن عساكرهم ، واستُنبطت احوال اهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم ، واستُجليت عوائد المترفين في نفقاتهم ، لم نجد معشار ما يعدّونه . وما ذلك الّا لولوع النفس بالغرائب ، وسهولة التجاوز على اللسان ، والغفلة على المُتعقّب والمنتقد (٤ ، حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ، ولا يطالبها في الخبر بتوسّط ولا عدالة ، ولا يُرجعها الى بحث وتفتيش . فيرسل عنانه ، ويُسيم (٥ في مراتع الكذب لسانه ، ويشتري لهو الحديث ليُضلّ عن سبيل الحقّ » (٦ . وحسبك بها صفقة خاسرة !

---

١) المترفين : جمع المترَف : الغني المتنعّم — ٢) الإغراب : الاتيان بالغريب
٣) اصحاب الدواوين : المقصود هم رؤساء ادارة الجيوش . —
٤) المتعقّب والمنتقد : اي من يأتي بعد الحوادث من المؤرّخين والنقّاد . —
٥) يُسيم : من أسام الماشية : اخرجها الى المرعى . —
٦) القرآن : (سورة لقمان : ٥) .

من الاخبار الواهية

غزوات التبابعة

ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافّةً في اخبار التبابعة، ملوك اليمن وجزيرة العرب، أنّهم كانوا يغزون من قَرارهم باليمن الى افريقية والبربر، من بلاد المغرب، والى الترك وبلاد التبت، من بلاد المشرق . وان افريقس بن قيس بن صيفي، من اعاظم ملوكهم الأُول، وكان لعهد موسى عليه السلام او قبله بقليل، غزا افريقية وأثخن في البَرْبَر . وانه الذي سمّاهم بهذا الاِسم، حين سمع رطانتهم، وقال : « ما هذه البَرْبَرَة (١ ؟ » فأُخذ هذا الاسم عنه، ودُعوا به من يومئذٍ . وانه لما انصرف من المغرب، جَمّر (٢ هناك قبائل من حمير، فاقاموا بها، فاختلطوا باهلها ؛ ومنهم صَنهاجة وكِتامة . ومن هذا ذهب الطبري(٣، والجرجاني (٤ والمسعودي (٥ ، وابن الكلبي (٦ ، والبيهقي (٧ الى ان صَنهاجة وكِتامة

---

١) البَرْبَرَة : كلام المصب غير المفهوم . — ٢) جمر : القومَ : جمعهم وجمّر القومُ : اجتمعوا . — ٣) الطبري (ابو جعفر محمد) اشهر مؤرخي القرن العاشر ولد في آمُل (طبرستان) وتوفي في بغداد (٨٣٨ — ٩٢٣ م) كتابه في التاريخ العام : « تاريخ الرسل والملوك » طبعة (de Goe,e) في ليدن . —
٤) الجُرجاني : (القاضي ابو الحسن علي ...) ترك كتاباً قيّماً في الانساب اسمه « الموثّق » . توفي في نيسابور سنة ٩٧٦م . —
٥) المسعودي . راجع ص ٤٠ ؛ ح ٤
٦) ابن الكلبي : (ابو المنذر هشام بن محمد) نسّابة ومؤرخ ، اهتمّ بامور الجاهليين والّف في ذلك كتباً عديدة لم يصلنا منها الا شذرات († ٨١٩م) . —
٧) البيهقي (ابو بكر احمد) محدث مشهور . توفي في نيسابور ١٠٦٦ م

من حمير . وتأباه نسابة البَرْبَر (١)، وهو الصحيح.

وذكر المسعودي ايضاً أن ذا الأذعار، من ملوكهم بعد افريقس وكان على عهد سليمان عليه السلام، غزا المغرب ودوّخه . وكذلك ذكر مثله عن ياسر ابنه من بعده، وأنه بلغ وادي الرمل، من بلاد المغرب، ولم يجد فيه مسلكاً لكثرة الرمل، فرجع . وكذلك يقولون في تُبَّع الآخِر، وهو اسعد ابو كَرِب، وكان على عهد يستاسف من ملوك الفرس الكِيانيّة، أنه ملك الموصل وأذربيجان، ولقي الترك فهزمهم واثخن فيهم . ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك . وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه الى بلاد فارس، والى بلاد الصُّغد من امم الترك وراء النهر (٢)، والى بلاد الروم . فملك الاول البلاد الى سمَرْقند، وقطع المفازة الى الصين . فوجد اخاه الثاني، الذي غزا الى الصُّغد، قد سبقه اليها؛ فاثخنا في بلاد الصين، ورجعا جميعاً بالغنائم . وتركوا، ببلاد التبت، قبائل من حِمْيَر؛ فهم بها لهذا العهد . وبلغ الثالث الى قسطنطينية فحاصرها (٣) ودوّخ بلاد الروم، ورجع .

وهذه الاخبار كلها بعيدة عن الصحّة، عريقة في الوهم والغلط، واشبه باحاديث القصّاص الموضوعة . وذلك ان مُلك التبابعة انما كان بجزيرة العرب، وقرارهم وكرسيّهم بصنعاء اليمن . وجزيرة العرب يحيط بها البحر، من ثلاث جهاتها : فبحر الهند، من الجنوب؛ وبحر فارس الهابط منه الى البصرة من الشرق؛ وبحر السويس الهابط منه ايضاً الى السويس من اعمال مصر، من جهة المغرب؛ كما تراه في مصوّر الجغرافيا . فلا يجد السالك من اليمن

---

١) اي ان نسابة البربر تأبى زعم المؤرخين المذكورين .

٢) النهر : المقصود به جيحون (راجع ص ٥) . —

٣) فحاصرها : وفي نسخة : دَرَسها اي محاها . —

الى المغرب طريقاً من غير السويس . والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي، قدر مرحلتين فما دونها. ويبعُد أن يمرّ بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة، من غير أن يصير (١ من اعماله. هذا ممتنع في العادة. وقد كان، بتلك الاعمال، العمالقة؛ وكنعان بالشام؛ والقبط بمصر. ثم ملك العمالقة مصر، وملك بنو اسرائيل الشام ولم يُنقل قط أن التبابعة حاربوا احداً من هؤلاء الأمم، ولا ملكوا شيئاً من تلك الاعمال. وايضاً فالشقة من اليمن الى المغرب بعيدة، والأزودة والعلوفة للعساكر كثيرة. فاذا ساروا في غير اعمالهم، احتاجوا الى انتساف (٢ الزروع والنَّعم، وانتهاب البلاد فيما يمرّون عليه؛ ولا يكفي ذلك للأزودة والعلوفة عادةً. وان نقلوا كفايتهم من ذلك، من اعمالهم، فلا تفي لهم الرواحل بنقله. فلا بدّ أن يمرّوا، في طريقهم كلها، باعمال قد ملكوها ودوّخوها لتكون الميرة منها. وان قلنا إن تلك العساكر كانت تمرّ بهؤلاء الأمم ولا تهيجهم، فتحصل لهم الميرة بالمسالمة فذلك ايضاً ابعد واشدّ امتناعاً. فدلّ على أن هذه الاخبار واهية او موضوعة. واما وادي الرمل الذي يُعجز السالك، فلم يُسمع قط ذكره في المغرب، على كثرة سالكه ومن نقض طرقه (٣ من الركاب والغُزى، في كل عصر وكل جهة. وهو، على ما ذكروه من الغرابة، مما تتوفر الدواعي على نقله.

واما غزوهم بلاد الشرق وارض الترك، وان كانت طريقه اوسع من مسالك السُّوَيس، إلّا ان الشقة هنا ابعد، وامم فارس والروم معترضون

---

١) يصير : الضمير عائد الى المسلك.

٢) الانتساف : الاقتلاع .

٣) طرقه : الهاء في « سالكه » و« طرقه » عائدة الى المغرب

فيها دون الترك ؛ ولم يُنقل قط ان التبابعة ملكوا بلاد فارس ولا بلاد الروم . وانما كانوا يحاربون اهل فارس ، على حدود ارض العراق وبلاد العرب ، ما بين البحرين والحِيرة ، المتاخمة بينهما في الاعمال . وقد وقع ذلك بين ذي الأذعار ، منهم ، وكيقاوس ، من ملوك الكيانية ؛ وبين تُبّع الاصغر ابي كَرِب وَيَستاسِفَ منهم ايضاً ؛ ومع ملوك الطوائف بعد الكيانية ، والساسانية من بعدهم . فمجاوزة التبابعة ارض فارس بالغزو الى بلاد الترك والتبت ممتنع عادةً ، من اجل الامم المعترضة دونهم ، والحاجة الى الأزودة والعلوفات ، مع بعد الشقة ، كما مرّ . فالاخبار بذلك واهية مدخولة . وهي ، لو كانت صحيحة النقل ، لكان ذلك قادحاً فيها ؛ فكيف وهي لم تُنقل من وجه صحيح ! وقولُ ابن اسحق (١ ان تُبّعاً الآخِر سار الى المشرق ، محمولٌ على العراق وبلاد فارس . وأما بلاد الترك والتبت فلا يصحّ غزوهم اليها بوجه ، لما تقرّر . فلا تثقنَّ بما يُلقى اليك من ذلك ، وتأمّل الاخبار ، واعرضها على القوانين الصحيحة يقعْ لك تمحيصها بأحسن وجه ، والله الهادي الى الصواب !

فصل

إرَم ذات العماد

وابعد من ذلك ، واعرق منه في الوهم ، ما يتناقله المفسّرون (٢ ، في

---

١) ابن اسحق : (محمد) صاحب « كتاب المغازي » في احاديث محمد وحروبه . وقد استعان هذا الكتاب ابن هشام في تأليفه « سيرة الرسول » ؛ توفي ابن اسحق في بغداد نحو السنة ٧٦٧ م . — ٢) المفسّرون : اي مفسّرو القرآن .

تفسير سورة «الفجر» (١ عند قوله تعالى : «ألم ترَ كيف فعل ربُّك بعاد ، إرَمَ ذات العماد . . .» فيجعلون لفظة «إرَم» اسماً لمدينة وُصفت بأنها «ذات العماد» اي الأساطين ؛ وينقلون انه كان لعاد بن عُوص بن إرَم ابنان : هما شديد وشدّاد ، ملكا من بعده . وهلك شديد ، فخلص الملك لشدّاد ، ودانت له ملوكهم . وسمع وصف الجنة فقال : «لابنينّ مثلها !» فبنى مدينة في صحاري عدن ، في ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة . وانها مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، واساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها اصناف الشجر ، والانهار المطّردة . ولما تمّ بناؤها ، سار اليها باهل مملكته ؛ حتى اذا كان فيها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبَري ، والثعالبي (٢ ، والزمخشري (٣ ، وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبد الله بن قِلابة ، من الصحابة ، انه خرج في طلب إبل له ، فوقع عليها (٤ وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره الى معاوية ، فاحضره ؛ وقصّ عليه . فبعث الى كعب الاحبار (٥ ، وسأله

---

١) سورة الفجر : هي السورة التاسعة والثمانون من القرآن . —

٢) الثعالبي : (ابو اسحق احمد) مفسّر مشهور ، ترك تفسيرًا واسماً للقرآن ، وتاريخًا للرسل . توفي سنة ١٠٣٥ او ١٠٣٦ م . —

٣) الزمخشري : (ابو القاسم محمود) نحويّ ومفسّر مشهور ، ترك عدة تآليف في هذين الفنّين . توفي سنة ١١٤٣ او ١١٤٤ م . — ٤) عليها : الضمير للمدينة

٥) كعب الاحبار : رجل اصله من يهود اليمن ، اسلم في خلافة عُمر وتوفي في حمص سنة ٦٥٣م . يروي عنهُ المؤرخون والمفسّرون كثيرًا من الاحاديث والغرائب المتعلقة بقدماء العرب وغيرهم من الشعوب . ولكن اكثر هذه الاساطير لا صحة لها . —

عن ذلك ، فقـال : «هي إرَم ذات العماد . وسيدخلها رجل من المسلمين ، في زمانك ، احمر ، اشقر ، قصير ، على حاجبيه خال ، وفي عنقه خال ؛ يخرج في طلب إبل له .» ثم التفت فابصر ابن قِلابة ، فقال: «هذا والله ! ، ذلك الرجل .» (اهـ.)

وهذه المدينة لم يُسمع لها خبر، من يومئذٍ، في شيء من بقاع الارض . وصحاري عدن ، التي زعموا انهـا بُنيت فيها ، في وسط اليمن . وما زال عمرانه متعاقباً، والركاب والادلّاء تنفض (١ طرقه من كل وجه . ولم يُنقل عن هذه المدينة خبر ، ولا ذكرها احد من الاخباريين، ولا من الأمم . ولو قـالوا انها درست فيما درس من الآثار، لكان اشبه . إلّا ان ظاهر كلامهم انها موجودة . وبعضهم يقول إنها دمشق بنـاء على أن قوم عاد ملكوها (٢ . وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى أنها غائبـة عن الحسّ ، وانما يعثر عليها اهل الرياضة (٣ ، والسحرة : مزاعم كلها شبيهة بالخرافات

والذي حمل المفسّرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظـة «ذات العماد» من أنها صفة «إرم» ؛ وحملوا «العماد» على الاساطين . فتعيَّن ان يكون بناء . ورشّح ذلك قِراءة ابن الزُّبير (٤ : «عادِ إرَمَ» على الإضافة من غـير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي اشبه بالاقاصيص الموضوعة ، واقرب لتفاسير سيفوية (٥ المنقولة في عداد المضحكات . وإلّا

---

١) تنفض: نفض الطريقَ : تتبعها . نفض المكان : نظر جميع ما فيه حتى يتعرّفه .

٢) وفي اعتقاد المسعودي ان جيرون ، من قوم عاد ، هو مؤسس دمشق . —

٣) الرياضة : المُراد بها الرياضة الروحية . واهل الرياضة : المتعبّدون . —

٤) ابن الزُّبير : (هشام بن عُروة) محدّث مشهور . توفي سنة ٧٦٣م . —

٥) سيفوية : كذا في نسخة باريس . ولا يُعرف شيء عن هذا الشخص . وفي

فالعِماد هي عماد الخيام. وإن أُريد بها الاساطين ، فـلا بدع بوصفهم بانهم اهل بناء واساطين ، على العموم ، بما اشتهر من قوّتهم ؛ لا انه بناء خاص في مدينة معيّنة ، او غيرها . وان اضيفت كما في قراءة ابن الزبير ، فعلى اضافة الفصيلة الى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة ، والياس مضر ، وربيعة نزار . واي ضرورة الى هذا المحمَل البعيد الذي تُمُحّلت لتوجيهه امثال هـذه الحكايات الواهية ، التي تنزّه كتاب الله عن مثلها ، لبعدها عن الصحة .

نـكبة البرامـكة

وهنا ينفي ابن خلدون ما يذكره المؤرخون عادةً من ان سبب نكبة البرامكة كان زواج جعفر بالعبّاسة اخت الرشيد زواجاً سرّيا لم يسمح به الخليفة . ينفي ذلك بقوله ان العبّاسة لأشرف من ان تدنّس نسبها بسبب مولى فارسي الاصل ، وهي « بنت خليفة ، اخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز ، والخلافة النبوية ، وصحبة الرسول ، وعمومته ، وامامة الملّة ونور الوحي ، ومهبط الملائكة ، من سائر جهاتها . » ثم يورد ما يرى من سبب نكبة هؤلاء القوم فيقول :

وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم اموال الجباية ؛ حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال ، فلا يصل اليـه . فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له ، معهم ، تصرُّف في امور ملكه . فعظمت آثارهم ، وبَعُـد صيتُهم ، وعمّروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من وُلدهم وصنائعهم ، واحتازوهـا عمّن سواهم : من وزارة ، وكتابة ، وقيادة ، وحجابة ، وسيفٍ وقلم . يقـال انه كان بدار

غيرها من النسخ حُذفت الجملة كلها . اما في طبعة الهوريني فقد أبدلت بألفاظ لا طائل تحتها . —

الرشيد، من وُلد يحيي بن خالد، خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم ؛ زاحموا فيهما اهل الدولة بالمناكب، ودفعوهم عنها بالراح، لمكان ابيهم يحيي من كفالة هارون، وليّ عهد وخليفة (١٠ حتى شبّ في حجره، ودرج من عشه ؛ وغلبه على امره ؛ وكان يدعوه : يا ابتي ! فتوجه الايثار من السلطان إليهم، وعظمت الدالّة منهم، وانبسط الجاه عندهم . وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقُصِرت عليهم الآمال، وتخطّت اليهم، من اقصى التخوم، هدايا الملوك وتُحف الأمراء (٢ وتسرّبت الى خزائنهم، في سبيل التزلّف والاستمالة، اموال الجباية . وافاضوا، في رجال الشيعة وعظماء القرابة، العطاء ؛ وطوّقوهم المِنَن، وكسّبوا (٣، من بيوتات الأشراف، المُعْدَم ؛ وفكّوا العاني . ومُدحوا بما لم يُمدح به خليفتهم ؛ وأسنَوا لعُفاتهم (٤ الجوائز والصِلات . واستولوا على القُرى والضياع من الضواحي والأمصار، في سائر الممالك

حتى اسفوا البطانة، واحقدوا الخاصة، وأغصّوا اهل الولاية . فكُشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبّت الى مهادهم الوثيرة، من الدولة، عقارب السعاية . حتى لقد كان بنو قحطبة، اخوال جعفر، من اعظم الساعين عليهم، ولم تعطفهم، لما وقر في نفوسهم من الحسد، عواطف الرحم ؛ ولا وَزَعَتهم أواصر القرابة . وقارنَ ذلك، عند مخدومهم، نواشئ الغيرة، والاستنكافُ

---

١) الكَفالة : الاسم من كفل فلان فلاناً : ام بأمره وسهر على مصالحه . — وليّ عهد وخليفة : حالان من هارون الرشيد . —

٢) الامراء : المقصود بالامراء هنا وُلاة المقاطعات . —

٣) كسبوا : كسَب وكسّب وأكسب فلانٌ فلاناً مالاً : افاده اياه . —

٤) العُفاة : جمع العافي : طالب النوال . —

من الكِبْر، والأَنفةُ، وكامنُ الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالّة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفة . كقصتهم في يحيي بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، اخي محمد المهدي الملقّب «بالنفس الزكيّة»، الخارج على المنصور . ويحيي هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيي (البرمكي) من بلاد الديلم، على امان الرشيد بخطّه، وبذل الفَ الف درهم، على ما ذكره الطبري . ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره، والى نظره . فحبسه مدةً؛ ثم حملته الدالة على تخلية سبيله، والاستبداد بحلّ عقاله، حرماً لدماء اهل البيت بزعمه، ودالّةً على السلطان في حُكمه . وسأله الرشيد عنه، لمّا وُشي به اليه، ففطن وقال : « اطلقتُه ! » فأبدى له وجه الاستحسان، وأسرّها في نفسه . فأوجد (١ السبيلَ بذلك على نفسه وقومه حتى ثُلّ عرشهم، وأُكفِئت (٢ عليهم سماؤهم، وخسفت الارض بهم وبدارهم، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخرين ايامهم . ومن تأمّل اخبارهم، واستقصى سير الدولة وسيرهم، وجد ذلك محقَّق الأثر، ممهَّد الاسباب

وانظر ما نقله ابن عبد ربه (٣ في مفاوضة الرشيد عمّ جدّه داود بن

---

١) فأوجد : الضمير لجعفر

٢) أُكفِئت : مجهول أَكفأَ الإناء وغيره : قَلَبَهُ على وجهه . —

٣) ابن عبد ربه : (ابو عمر احمد بن محمد) اديب وشاعر، وُلد في قرطبة سنة ٨٦٠ وتوفي سنة ٩٤٠ . ترك كتاباً شهيرًا في الأدب سماه « العقد » فنعته الادباء بلقب « الفريد » . وقد توسّعنا في ترجمة حياته وآثاره، وطريقته، اذ نشرنا منتخبات العقد الفريد في [الروائع : المجلد الثامن والتاسع .] اما قوله في البرامكة فاطلبه في [الروائع — المجلد ٩ ص : ٨٥-٨٦] . —

علي في شأن نكبتهم ، وما ذكره في باب الشعراء من كتاب «العقد» ، في محاورة الاصمعي (١ للرشيد ، وللفضل بن يحيي ، في سمرهم ، تتفهم انه انما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد ، من الخليفة فمن دونه . وكذلك ما تحيّل به اعداؤهم من البطانة ، فيما دسّوه للمغنين من الشعر ، احتيالاً على اسماعه للخليفة ، وتحريك حفائظه لهم ، وهو قوله :

ليت هندًا انجزتنا ما تَعِدْ ! وشفت أنفسنا مما تجدْ !
واستبدّت مرّةً واحدةً . انما العاجز من لا يستبدْ !

وان الرشيد لما سمعها قال : « إي ، والله ، اني عاجز ! » حتى بعثوا ، بامثال هذه ، كامنَ غيرته ، وسلّطوا عليهم بأس انتقامه . نعوذ بالله من غلبة الرجال ، وسوء الحال

الرشيد والخمر

واما ما تموّه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر ، واقتران سكره بسكر الندمان ، فحاشا الله ! ما علمنا عليه من سوء . واين هذا من حال الرشيد ، وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ، ومحاورته للفُضَيل بن عِياض (٢ ، وابن

---

١) الاصمعي : (ابو سعيد عبد الملك بن قُرَيب) نحوي وراوية مشهور . توفي نحو السنة ٨٣٢ .

٢) الفُضيل بن عِياض : كان في اول امره من قُطّاع الطرق . ثم ترهّد واكثر التعبّد حتى نال ذكرًا مشهورًا بين الصوفيين . توفي سنة ٨٠٣م . —

السَّمَّاك (١)، والعُمَري (٢) ومكاتبته سفيان (٣)، وبكائه من مواعظهم؛ ودعائه بمكّة في طُوافه؛ وما كان عليه من العبادة والمحافظة على اوقات الصلوات، وشهود الصبح لأوّل وقتها؟ حكى الطبري وغيره أنه كان يصلّي، في كل يوم مائة ركعة نافلة (٤). وكان يغزو عاماً ويحجّ عاماً. ولقد زجر ابن ابي مَريم، مضحكه في سمره، حين تعرّض له بمثل ذلك في الصلاة، لما سمعه يقرأ: «ومالي لا أعبُدُ الذي فطرني؟» (٥) قال (٦): «والله، لا ادري لِمَ!» فما تمالك الرشيد ان ضحك. ثم التفت اليه مغضباً وقال: «يا ابن ابي مَريم، في الصلاة ايضاً؟ اياك! اياك والقرآنَ، والدينَ. ولك ما شئت بعدهما!»

وايضاً فقد كان (٧) من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين (٨) لذلك. ولم يكن بينه وبين جدّه ابي جعفر بعيدُ زمن؛ انما خلّفه غلاماً. وقد كان ابو جعفر بمكان من العلم والدين، قبلَ الخلافة وبعدها. وهو القائل لمالك (٩)، حين اشار عليه بتأليف «الموطّأ»: «يا ابا

---

١) ابن السمّاك: (ابو العباس محمد) واعظ مشهور بعلمه وتقواه. مات ٧٩٩م
٢) العُمري: (عبيد الله بن حفص) حفيد الخليفة عُمر، كان يُعدّ من المحدثين
٣) سُفيان: (ابو محمد ابن عُيَيْنَة) فقيه ومحدّث. مات في مكة سنة ٨١٤م.
٤) نافلة: ما يُفعل مما لم يُفرض ولم يجب فعله. —
٥) القرآن: (سورة يس: ٢١). ٦) قال: الضمير لابن ابي مَريَم.
٧) كان: الضمير للرشيد. —
٨) المنتحلين: المنتسبين، اي المنتسبين للعلم والسذاجة. —
٩) مالك: هو مالك بن أنس، مؤسس المذهب المالكي؛ توفي سنة ٧٩٤ م. اما كتابه «الموطأ» فهو اول تأليف جُمعت فيه الأحاديث، وكانت قبله متفرقة تنقل بطريق التقليد. —

عبد الله ، انــه لم يبقَ على وجه الارض ، اعلم مني ومنك . ولني قد شغلتني الخلافة ، فضعْ انت للناس كتاباً ينتفعون به ، تجنّب فيــه رخص ابن عباس (١ ، وشدائد ابن عُمر (٢ ، ووطّئه للنــاس توطئــةً . » قال مالك : « فوالله ! لقد علّمني التصنيف يومئذٍ . » ولقد ادركه ابنه المهدي ، ابو الرشيد هــذا ، وهو يتورّع (٣ عن كسوة الجديد لعياله من بيت المــال . ودخل عليه يوماً ، وهو بمجلسه ، يباشر (٤ الخياطين في ارقاع الخُلقــان من ثياب عياله ، فاستنكف المهدي من ذلك ، وقال : « يا اميرَ المؤمنين ، عليَّ كسوة هذه العيال ، عامَنا هذا ، من عطائي . » فقال له : « لك ذلك ! » ولم يصدّه عنه ، ولا سمح بالانفاق من اموال المسلمين

فكيف يليق بالرشيد ، على قرب العهد من هذا الخليفة وابوّته ، وما ربي عليه من امثال هذه السير في اهل بيته والتخلّق بها ، ان يعاقر في الخمر او يجاهر بها ؟ . وقد كانت حال الأشراف من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ؛ ولم تكن الكَرْم شجرتهم ، وكان شربها مذمّة عند الكثير منهم (٥ . والرشيد وآباؤه كانوا على ثَبَجٍ (٦ من اجتناب المذمومات في

١) ابن عبّاس : (عبدالله) محدّث ومفسّر مشهور ؛ توفي سنة ٦٨٨م . والمراد « برُخصه » سهولة قبوله للاحاديث .

٢) ابن عُمر : (عبدالله) ابن الخليفة عُمر بن الخطاب اشتهر بفضيلته وتقواه ، وترك عدّة احاديث . توفي سنة ٦٨٨م . والمراد بشدائده انهُ كان يشدّد الشروط في قبول الاحاديث . —

٣) يتورّع : يتعفّف . —

٤) يُباشر الخياطين : اي يخاطبهم بنفسه . —

٥) ونرى في ما وصل الينا من الشعر الجــاهلي ، ان العرب كانوا يفتخرون بشرب الخمر — انظر خاصة معلقات طرفة ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم ، وقصائــد عدي بن زيد وغيرهم . —

٦) على ثَبَجٍ : ثبجُ الشيء :

دينهم ودنياهم، والتخلق بالمحامد، واوصاف الكمال، وتركات العرب

وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصة جبريل بن بختيشوع (١ الطبيب، حين أحضر له (٢ السمك في مائدته، فجاء عنه. ثم امر صاحب المائدة بحمله الى منزله. وفطن الرشيد، وارتاب به؛ ودسّ خادمه حتى عاينه يتناوله. فاعدّ ابن بختيشوع، للاعتذار، ثلاث قطع من السمك في ثلاثة اقداح: خلط إحداها باللحم المعالج بالتوابل، والبقول، والبوارد، والحلوى؛ وصبّ على الثانية ماء مثلجاً؛ وعلى الثالثة خمراً صرفاً. وقال، في الاول والثاني: «هذا طعام امير المؤمنين، إن خلط السمك بغيره او لم يخلطه». وقال في الثالث: «هذا طعام ابن بختيشوع.» ودفعها الى صاحب المائدة. حتى اذا انتبه الرشيد، وأحضره للتوبيخ، أحضر ثلاثة الأقداح، فوجد صاحبَ الخمر قد اختلط وأماع وتفتّت؛ ووجد الآخرين قد فسدا وتغيّرت رائحتها. فكانت له في ذلك معذرة. وتبيّن من ذلك ان حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته، واهل مائدته

ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس ابي نواس (٣، لما بلغه من انهماكه في المعاقرة؛ حتى تاب واقلع

وسطه ومعظمه؛ وعلى نيج من اجتناب المذمومات: على قدر عظيم.

١) بَختَيشوع: (ومعناه: خادم او عبد يسوع) اسم عائلة مسيحية اشتهرت بالعلوم والطب خاصة في العصر العباسي، فنبغ منها عشرة اطباء في مدة ثلاثة قرون وكان اشهرهم بَختَيشوع بن جرجيس، وجبريل بن بَختيشوع هذا. وكان الخلفاء يختارون خاصة اطبائهم من افراد هذه العائلة. — ٢) له: الضمير للرشيد

٣) ابو نواس: (٧٥٦—٨١٠) من اشهر شعراء العصر العباسي الاول — كان فارسي الاصل اتصل بالبرامكة، فبالرشيد والامين — ترك شعراً كثيراً ولكن اغلبه في المجون والخلاعة، ووصف الملذّات المحرّمة، حتى استحقّ السجن بسبب ذلك.

وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر ، على مذهب اهل العِراق (١ ؛ وفتاويهم فيها معروفة . واما الخمر الصِرف من العنب ، فلا سبيل الى اتهامه بها ، ولا تقليد الاخبار الواهيـة فيها . فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من اكبر الكبائر عند اهل الأئمة . ولقد كان اولئك القوم (٢ كلهم بمنجاة من خَنَث السرف ، والترف في ملابسهم ، وزينتهم ، وسائر متناولاتهم ؛ لما كانوا عليه من خشونة البداوة ، وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنّك بما يخرج عن الاباحة الى الحَظر ، وعن الحِلّة الى الحُرمة ؟ ولقد اتفق المؤرخون ، الطبري والمسعودي وغيرهما ، على ان جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العبّاس ، انما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضّة ، في المناطق والسيوف والُلجم والسروج ؛ وان اول خليفة احدث الركوب بحلية الذهب هو المعتزّ بن المتوكل ، ثامن الخلفاء بعد الرشيد . وهكذا كان حالهم ايضاً في ملابسهم ، فما ظنّك بمشاربهم ؟ ويتبيّن ذلك باتمّ من هـذا ، اذا فهمت طبيعة الدولة في اولها من البـداوة والغضاضة (٣ ، كما نشرح في مسائل الكتاب الاول ، ان شاء الله تعالى !

يحيى بن اكثم والمأمون والسُكر

ويناسب هذا او قريباً منه ما ينقلونه كافّةً عن يحيى بن أكثم (٤ ،

١) مذهب اهل العراق : اي المذهب الحنفي . وكان فقهاؤه يحللون النبيذ وهو عصير التمر ، او التين ، او العنب ، او غير ذلك من الفاكهة ، اذا ما غلي على النار فبلغ نصف حجمه الأول لا اقلّ ٢) اولئك القوم : اي قوم الرشيد العباسيين . —

٣) الغضاضة : المراد بها بساطة العيشة . —

٤) يحيى بن أكثم : اشتهر بذكائه ومعرفته التامة لقواعد الفقه ، ولكنهُ عرف ايضاً بتهتكه وسفالة اخلاقه . توفي سنة ٨٥٧م .

قاضي المأمون وصاحبه ، وانه كان يعاقر المأمون الخمر ؛ وانه سكر ليلةً مع شربه ، فدُفن في الريحان ، حتى افاق ، وينشدون على لسانه :

يا سيّدي واميرَ الناس كلّهم ٭ قد جار في حكمه من كان يسقيني

اني غفلت عن الساقي ، فصيّرني ٭ كما تراني ، سليبَ العقل والدينِ

وحال ابن اكثم والمأمون ، في ذلك ، من حال الرشيد : وشرابهم انما كان النبيذ ؛ ولم يكن محظورًا عندهم . واما السُكر فليس من شأنهم . وصحابته للمأمون انما كانت خلّةً في الدين ؛ ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت . ونُقِل في فضائل المأمون ، وحسن عشرته ، انه انتبه ذات ليلة ، عطشانَ ، فقام يتجسّس ويلتمس الاناء مخافة ان يوقظ يحيى بن أكثم . وثبت انهما كانا يصلّيان الصبح جميعاً . فاين هذا من المعاقرة ؟

ثم يستشهد بشهادات الائمة والعلماء في يحيى ، وينفي عنهُ ، ما ينسبه اليهِ المؤرخون ، من الاخلاق السافلة ، والميل الحيواني الى الملذّات المحرّمة .

حكاية الزنبيل

سبب زواج المأمون بنت الحسن بن سهل

ومن امثال هذه الحكايات ، ما نقله ابن عبد ربه ، صاحب «العقد» ، من حديث الزنبيل في سبب إصهار المأمون الى الحسن بن سهل ، في بنته بوران ؛ وانه عثر في بعض الليالي ، في تطوافه بسكك بغداد ، بزنبيل مدلّى من بعض السطوح ، بمعالق ، وجدُل مُغارَة الفتل ، من الحرير . فاقتعده ، وتناول المعالق . فاهتزّت ، وذهب به صُعُدًا الى مجلسٍ شأنه كذا : ووصف من زينة فرشه ، وتنضيد آنيته ، وجمال رؤيته ، ما يستوقف

الطرف ، ويملك النفس . وان امرأة برزت له من خلل الستور ، في ذلك المجلس ، رائعة الجمال ، فتانة المحاسن . فحيّته ودعته الى المنادمة . فلم يزل يعاقرها الخمر ، حتى الصباح . ورجع الى اصحابه بمكانهم من انتظاره . وقد شغفته حباً بعثه على الإصهار الى ابيها .

واين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه ، واقتفائه سنن الخلفاء والراشدين من آبائه ؛ واخذه بسيرة الخلفاء الاربعة ، اركان الملّة ؛ ومناظرته العلماء ؛ وحفظه لحدود الله في صلواته واحكامه ؟ فكيف تصح منه احوال الفُسّاق المستهترين (١ في التطواف بالليل ، وطرق المنازل ، وغشيان السَّمر ، سبيلَ عشاق الاعراب ؟ واين ذلك من منصب بنت الحسن بن سهل ، وشرفها ؛ وما كان بدار ابيها من الصون والعفاف ؟

اسباب وضع هذه الحكايات

وامثال هذه الحكايات كثيرة ، وفي كتب المؤرخين معروفة وانما يبعث على وضعها ، والحديث بها ، الانهماك في اللذّات المحرّمة ، وهتك قناع المروءة ؛ ويتعلّلون بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذّاتهم . فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون باشباه هذه الاخبار ، وينقّرون عنها ، عند تصفّحهم لاوراق الدواوين . ولو ائتسوا بهم في غير هذا من احوالهم ، وصفاتِ الكمال اللائقة بهم ، المشهورة عنهم ، لكان خيراً لهم ، لو كانوا يعلمون .

ولقد عذلت يوماً بعض الامراء من ابناء الملوك في كَلَفه بتعلّم الغناء ، وولوعه بالاوتار ، وقلت له : « ليس هذا من شأنك ، ولا يليق بمنصبك ! »

---

١) المستهترين : جمع المستهتر بالشيء : المولَع به لا يبالي بما فعل .

فقال لي: « افلا ترى الى إبراهيم بن المهدي ، كيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنّين في زمانه؟» فقلت له: « يا سبحان الله! وهلّا تأسّيت بأبيه او اخيه! (١ أوَ ما رأيت كيف قَعَد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم؟» فصَمَّ عن عذلي، وأعرض. والله يهدي من يشاء!

اصل العُبيديين، والأدارسة، والمهدي

وبعد هذا ينتقد ابن خلدون ما يقوله المؤرخون عادة عن العُبيديين، والأدارسة، وصفات المهدي. ثم يطيل الكلام في اصل هؤلاء الامراء واحوالهم في القيروان، والقاهرة، وبلاد المغرب. ويتكلم عن ضعفاء الرأي من فقهاء المغرب الذين يقدحون في الإمام المهدي صاحب دولة الموحّدين .. حتى ينتهي الى صفات المؤرخ بوجه الاجمال:

صفات المؤرخ

وقد كدنا ان نخرج عن غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط؛ فقد زلّت اقدام كثير من الأثبات، والمؤرّخين الحُفّاظ، في مثل هذه الاحاديث والآراء. وعلقت بافكارهم، ونقلها عنهم الكافّة من ضَعَفَة النظر والغَفَلَة عن القياس، وتلقّوها هم ايضاً كذلك من غير بحث ولا رويّة؛ واندرجت في محفوظاتهم. حتى صار فنّ التاريخ واهياً، مختلطاً؛ وناظرُه مرتبكاً؛ وعُدّ من مناحي العامّة

فاذاً يحتاج صاحب هذا الفنّ الى العلم بقواعد السياسة، وطبائع الموجودات، واختلاف الامم، والبقاع، والاعصار، في السِيَر والاخلاق،

---

١) اي المهدي والرشيد

والعوائد، والنحل، والمذاهب (١)، وسائر الاحوال. والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، او بون (٢) ما بينهما من الخلاف؛ وتعليل المتفق منه والمختلف. والقيام على اصول الدول والملل، ومبادئ ظهورها، واسباب حدوثها، ودواعي كونها، واحوال القائمين بها واخبارهم. حتى يكون مستوعباً لاسباب كل حادث، واقفاً على اصل كل خبر. وحينئذٍ يعرض خبَره المنقول على ما عنده من القواعد والاصول. فان وافقها وجرى على مقتضاها، كان صحيحاً؛ وإلاَّ زيَّفه واستغنى عنه

وما استكبر القدماء علم التاريخ إلّا لذلك؛ حتى انتحله (٣) الطبري والبخاري، وابن اسحق من قبلهما، وامثالهم من علماء الامة. وقد ذهَل الكثير عن هذا السرّ فيه (٤) حتى صار انتحاله مجهلةً (٥). واستخفّ العوام، ومَن لا رسوخ له في المعارف، مطالعتَه، وحمله، والخوضَ فيه، والتطفّلَ عليه. فاختلط المرعيُّ بالهَمَل (٦)، واللباب بالقشر، والصادق بالكاذب، «والى الله عاقبة الامور» (٧)

---

١) النحل والمذاهب: المراد بالمذاهب: الدينية منها. اما النُحَل فهي المذاهب العقليّة والآراء. — ٢) البون: البعد، الفَرْق.

٣) انتحله: انتحل الشيء: في الاصل، نسبه إليهِ. ويريد بها ابن خلدون ان الطبري والبخاري وابن اسحق ساروا على منهاج (تاريخ الصحيح – اما اليوم فان لفظة الانتحال يكاد ينحصر استعمالها بمعنى الاحتقار. فيُقال: انتحل فلان الشيء وانتحل الشعر: اذا نسبهُ اليهِ وهو لغيره. —

٤) فيه: الضمير للتاريخ والسرّ فيهِ: مجموع مبادئه. —

٥) مجهلة: اي مظهراً لجهل من يشتغل فيه. —

٦) الهَمَل: الماشية التي تُترك بدون راعٍ. —

٧) القرآن: (سورة لُقمان: ٢١)

من مغالط التاريخ

ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدّل الاحوال، في الامم والاجيال، بتبدّل الاعصار، ومرور الايام. وهو داء دويّ شديد الخفاء، اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة؛ فلا يكاد يتفطّن له الا الآحاد من اهل الخليقة. وذلك ان احوال العالم والأمم، وعوائدهم، ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقرّ. انما هو اختلاف على الايام والازمنة، وانتقال من حال الى حال. وكما يكون ذلك في الاشخاص، والاوقات، والامصار؛ فكذلك يقع في الآفاق، والاقطار، والازمنة، والدّول: «سنّة الله التي قد خلت في عباده» (١

وقد كانت في العالم امم الفرس الاولى، والسريانيون (٢، والنبط، والتبابعة، وبنو إسرائيل، والقبط. وكانوا على احوال خاصّة بهم في دولهم، وممالكهم، وسياستهم، وصنائعهم ولغاتهم، واصطلاحاتهم، وسائر مشاركاتهم من ابناء جنسهم، واحوال اعتمارهم للعالم (٣. تشهد بذلك آثارهم. ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية، والروم، والعرب. فتبدّلت تلك الاحوال، وانقلبت بها العوائد الى ما يجانسها ويشابهها او الى ما يباينها ويباعدها. ثم جاء الإسلام بدولة مضر؛ فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابةً أخرى، وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد، يأخذه الخلف

---

١) القرآن: (سورة المؤمن: ٨٥)

٢) السريانيون: هم من ندعوهم اليوم بالاشوريين لنميّزهم عن سريان العصر الحاضر.

٣) احوال اعتمارهم للعالم: اي احوال تمدينهم لعالمهم.

عن السلف . ثم درست دولة العرب وايامهم ، وذهب الاسلاف الذين شيّدوا عزّهم ، ومهّدا ملكهم . وصار الامر في ايدي سواهم من العجم : مثل الترك بالمشرق ؛ والبربر بالمغرب ؛ والافرنجة بالشمال . فذهبت بذهابهم أُمَم ، وانقلبت احوال وعوائد ، نُسي شأنها وأُغفل امرُها

والسبب الشائع في تبدّل الاحوال والعوائد ان عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه ، كما يقال في الامثال الحكمية : «الناس على دين الملك !» واهلُ الملك والسلطان ، اذا استولوا على الدولة والامر ، فلا بدّ ان ينزعوا الى عوائد من قبلهم ، ويأخذوا الكثير منها . ولا يغفلون عوائد جيلهم مع ذلك . فيقع ، في عوائد الدولة ، بعض المخالفة لعوائد الجيل الاول . فاذا جاءت دولة اخرى من بعدهم ، ومزجت من عوائدهم وعوائدها ، خالفت ايضاً بعض الشيء ، وكانت للأولى اشد مخالفة . ثم لا يزال التدريج في المخالفة ، حتى ينتهي الى المُبايَنَة بالجملة . فما دامت الامم والاجيال تتعاقب في الملك والسلطان ، لا تزال المخالفة في العوائد والاحوال واقعة

والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ، ومن الغلط غير مأمونة ، تُخرجه مع الذهول والغلط ، عن قصده ، وتعوج به عن مرامه . فربما يسمع السامع كثيراً من اخبار الماضين ، ولا يتفطّن لما وقع من تغيُّر الاحوال وانقلابها ، فيجريها ، لاول وهلة ، على ما عرف ، ويقيسها بما شهد ؛ وقد يكون الفرق بينها كثيراً ، فيقع في مهواة من الغلط

الحَجّاج والتعليم

فمن هذا الباب ما ينقله المؤرخون من احوال الحجّاج ، وان اباه كان من المعلّمين . مع ان التعليم ، لهذا العهد ، من جملة الصنائع المعاشيّة البعيدة

من اعتزاز اهل العصبية . والمعلم مستضعف ، مستكين ، منقطع الجذم . فيتشوف الكثير من المستضعفين ، لعل الحرف والصنائع المعاشية ، الى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل ، ويعدونها من الممكنات لهم . فتذهب بهم وساوس المطامع ، وربما انقطع حبلها من ايديهم ، فسقطوا في مهواة الهلكة والتلف . ولا يعلمون استحالتها في حقهم ، وانهم اهل حرف وصنائع . وان التعليم ، صدر الإسلام والدولتين (١) ، لم يكن كذلك . ولم يكن العلم بالجملة صناعة ؛ انما كان نقلاً لما سمع من الشارع (٢) ، وتعليماً لما جهل من الدين ، على جهة البلاغ . فكان اهل الانساب والعصبية ، الذين قاموا بالملة ، هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه (صلعم) ، على معنى التبليغ الخبري ، لا على وجه التعليم الصناعي . اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم ، وبه هدايتهم ، والإسلام دينهم ، قاتلوا عليه ، وقتلوا ، واختصوا به من بين الامم ، وشرفوا . فيحرصون على تعليم ذلك ، وتفهيمه للأمة ، لا تصدهم عنه لائمة الكبر ، ولا يزعهم عاذل الانفة . ويشهد لذلك بعث النبي (صلعم) كبار اصحابه ، مع وفود العرب ، يعلمونهم حدود الاسلام وما جاء به من شرائع الدين . بعث ، في ذلك ، من اصحابه فمن بعدهم . فلما استقر الإسلام ، ووشجت عروق الملة حتى تناولها الامم البعيدة من ايدي اهلها ، واستحالت بمرور الايام احوالها ، وكثر استنباط الاحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها ، فاحتاج الى قانون يحفظه من الخطأ ، صار العلم ملكة تحتاج الى التعلم ؛ فاصبح من جملة الصنائع والحرف —

---

١) الدولتين : اي الاموية والعباسية . —

٢) الشارع : هو الذي يسن الشرائع .

كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم — واشتغل اهل العصبيّة بالقيام بالملك والسلطان ، فدُفع للعلم من قام به من سواهم ، واصبح حرفة المعاش. وشمخت انوف المترفين ، واهل السلطان ، عن التصدّي للتعليم ، واختصّ بالمستضعَفين ، وصار منتحله محتقرًا عند اهل العصبيّة والملك

والحجّاج بن يوسف كان ابوه من سادات ثقيف واشرافهم ؛ ومكانهم من عصبيّة العرب ، ومناهضة (١ قريش في الشرف ، ما علمت. ولم يكن تعليمه للقرآن ، على ما هو الامر عليه لهذا العهد ، من انه حرفة للمعاش ؛ وانما كان ، على ما وصفناه ، من الامر الاول في الإسلام .

تطوّر القضاء ، وتأثير العصبيّات

ومن هذا الباب ما يتوهّمه المتصفّحون لكتب التاريخ ، اذا سمعوا احوالَ القُضاة ، وما كانوا عليه من الرئاسة في الحروب وقود العساكر . فتترامى بهم وَساوِس الهِمم الى مثل تلك الرّتب ، يحسبون أنّ الشأن في خطة القضاء ، لهذا العهد ، على ما كان عليه من قبل . ويظنّون بابن ابي عامر ، حاجب هشام ، المستبدّ عليه ، وابن عبّاد ، من ملوك الطوائف باشبيلية ، اذا سمعوا ان آباءهم كانوا قُضاةً ، أنّهم مثل القُضاة لهذا العهد ؛ ولا يتفطّنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد ، كما نبيّنه في فصل القضاء من الكتاب الاول . وابن ابي عامر وابن عبّاد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الاموية ، بالاندلس ، واهل عصبيّتها . وكان مكانهم فيها معلوماً ، ولم يكن نيلُهم لما نالوه من الرئاسة والملك ، بخطّة القضاء كما هي لهذا العهد . بل انما كان القضاء ، في الامر القديم ، لاهل العصبيّات من

(١) المناهضة : مصدر ناهض فلان قِرْنه في الامر : نافسه فيه ، وقاومه .

قبيل الدولة، ومواليهـا ؛ كما هي الوزارة، لعهدنا ، بالمغرب . وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف، وتقايدهم عظـائم الامور التي لا تُقلَّد الّا لمن له الغنى فيها بالعصبية. فيغلط السامع في ذلـك، ويحمل الاحوال على غير ما هي .

واكثر ما يقع في هذا الغَلَط ضعفاء البصائر من اهل الاندلس لهـذا العهد ، لفُقدان العصبية في مواطنهم منذ اعصار بعيـدة ، بفناء العرب ودولتهم بهم؛ وخروجهم (١ عن ملكة اهل العصبية من البَرْبَر ، فبقيت انسابهم العربية محفوظة، والذريعة الى العزّ من العصبيّة والتناُصر مفقودة. بل صاروا من جملة الرعايا المتخاذلين الذين تعبَّدهم القهر، ورئموا (٢ للمذلّة، يحسبون أن انسابهم ، مع مخالطة الدولة، هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكّم. فتجد اهل الحِرَف والصنائع منهم متصدّين لذلـك، ساعين في نيله. فأمّا من باشر احوال القبائل ، والعصبيّة ، ودولهم بالعَـدْوَة الغربيّة ، وكيف يكون التغلّب بين الامم والعشائر ، فقلّما يغلطون في ذلك، او يخطئون في اعتباره

طريقة مؤرّخي الدولتين

في ذكر اهل بيت الملك واعوانه

ومن هذا الباب ايضاً ما يسلكه المؤرّخون ، عنـد ذكر الدول ونسق ملوكهم . فيذكرون اسمه (٣ ونسبه ، وامّه واباه ، ونساءه ، ولقبه وخاتمه ، وقاضيه وحاجبه ووزيره . كلّ ذلك تقليداً لمؤرّخي الدولتين (٤

---

١) خروجهم : الضمير لاهل الاندلس.

٢) رئم : للضيم يرأم : ذلّ ورضي به فهو : رَؤوم . —

٣) اسمه : اي اسم الملك. — ٤) الدولتين : الاموية والعباسيّة . —

من غير تفطُّن لمقاصدهم . والمؤرخون ، لذلك العهد ، كانوا يضعون تواريخهم لاهل الدولة (١ ، وابناؤها متشوّفون الى سِيَرِ أسلافهم ، ومعرفة احوالهم ليقتفوا آثارهم ، وينسجوا على منوالهم ؛ حتى في اصطناع الرجال من خلَف دولتهم ، وتقليد الخُطط والمراتب لابناء صنائعهم وذويهم . والقضاة ايضاً كانوا من اهل عصبية الدولة ، وفي عداد الوزراء ، كما ذكرناه لـك ، فيحتاجون الى ذكر ذلك كلّه . واما حين تباينت الدول ، وتباعد ما بين العصور ، ووقف الغرض على معرفة الملوك بانفسهم خاصّة ، ونسب الدول بعضها من بعض في قوّتها وغلبها ، ومن كان يناهضها من الامم او يقصّر عنها ؛ فما الفائدة للمصنّف ، في هذا العهد ، من ذكر الابناء والنساء ، ونقش الخاتم ، واللقب ، والقاضي ، والوزير ، والحاجب ، من دولة قديمة لا يعرف فيها اصولهم ، ولا انسابهم ، ولا مقاماتهم . انما حملهم على ذلك التقليد ، والغفلة عن مقاصد المؤلفين الاقدمين ، والذهول عن تحرّي الاغراض من التاريخ اللهمَّ إلَّا (٢ ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم ، وعفت (٣ على الملوك اخبارهم ، كالحجّاج ، وبني المهلّب ، والبرامكة ، وبني سهل بن نوبَخت ، وكافور الإخشيدي ، وابن ابي عامر ، وامثالهم . فغير نكير الالماع بايامهم ، والاشارة الى احوالهم ، لانتظامهم في عداد الملوك .

---

١) اهل الدولة : اي اهل الأُسرة المالكة .

٢) اللّهمَّ الّا : كثيرًا ما يستعمل ابن خلدون لفظة «اللهم» وحدها في الاستثناء اي دون ان يلحق بها « الّا » وهو الصواب (راجع قوله : « اللهمَّ الى المئين والآلاف فربما . . . » ص : ٧) خلافاً لما يراه اكثر كتّاب العصر . اما في المواضع التي يردف بها « اللهمَّ » « بالّا » فيكون ذلك من خطأ النسخ على ما نرى

٣) عفى : فلان على فلان في العلم وغيره : زاد عليهِ .

فائدة التاريخ العامّ — مقصد ابن خلدون

ولنذكر هنا فائدة نختم كلامنا، في هذا الفصل، بها. وهي ان التاريخ هو ذكر الاخبار الخاصّة بعصر او جيل. فاما ذكر الاحوال العامّة للآفاق والاجيال، والاعصار، فهو أسّ للمؤرّخ تُبنى عليه اكثر مقاصده، وتتبيّن به اخبارُه. وقد كان الناس يُفرِدونه بالتأليف كما فعل المسعودي في كتاب «مروج الذهب». شرح فيه احوال الامم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلاثمائة (١ غرباً وشرقاً. وذكر نِحَلَهم، وعوائدَهم، ووصف البلدان، والجبال، والبحار، والممالك، والدول، وفرّق شعوبَ العرب والعجم. فصار إماماً للمؤرّخين يرجعون اليه، واصلاً يعوّلون في تحقيق الكثير من اخبارهم عليه. ثم جاء البكري (٢ ففعل مثل ذلك في «المسالك والممالك» خاصّة دون غيرها من الاحوال؛ لان الامم والاجيال لعهده لم يقع فيها كثير انتقال، ولا عظيم تغيّر. واما لهذا العهد، وهو آخر المئة الثامنة (٣ فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدّلت بالجملة. واعتاض (٤ من اجيال البربر، اهله على القدم، بما طرأ فيه، من لدن المئة الخامسة، من اجيال العرب، بما كسروهم (٥ وغلبوهم، وانتزعوا منهم عامّة الاوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم. هذا الى ما

---

١) المتوفى سنة ٩٥٦م. —

٢) البكري: (ابو عبيد) جغرافي ومؤرخ، الاندلسي الاصل، ترك كتاباً في الجغرافية اسمه «المسالك والممالك» (١٠٤٠–١٠٩٤). —

٣) كان انتهاء القرن الثامن الهجري في شهر ايلول ١٣٩٧م. —

٤) اعتاض: الضمير للمغرب

٥) كسروهم: ضمير الفاعل للعرب، وضمير المفعول للبربر. —

نزل بالعمران شرقاً وغرباً ، في منتصف هذه السنة الثامنة ، من الطاعون الجارف (١) الذي تحيّف الامم ، وذهب باهل الجيل ، وطوى كثيراً من محاسن العمران ، ومحاها . وجاء للدول على حين هرمها ، وبلوغ الغاية من مداها ، فقلّص من ظلالها ، وفلّ من حدّها ، واوهى من سلطانها ، فتداعت الى التلاشي والاضمحلال احوالها . وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر ، فخربت الامصار والمصانع ، ودرست السُبل والمعالم ، وخلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل ، وتبدّل الساكن . وكأني بالمشرق قد نزل به ما نزل بالمغرب ، لكن على نسبته ومقدار عمرانه . كأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض ، فبادر الى الاجابة . والله وارث الارض ومن عليها !

واذا تبدّلت الاحوال جملةً ، فكأنما تبدّل الخَلق من أصله ، وتحوّل العالم بأسره . وكأنه خَلقٌ جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم مُحدَث . فاحتاج لهذا العهد ، من يدوّن احوال الخليقة ، والآفاق ، وأجيالها ، والعوائد ، والنِحل التي تبدّلت لاهلها ، ويقفو مسالك المسعودي لعصره ، ليكون أصلاً يقتدي به من يأتي من المؤرّخين من بعده

وانا ذاكر ، في كتابي هذا ، ما امكنني منه في هذا القطر المغربي : اما صريحاً ، او مندرجاً في اخباره ، وتلويحاً لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب ، واحوال اجياله وأممه ، وذكر ممالكه ودوله ؛ دون ما سواه

---

(١) الطاعون الجارف : يقصد الكاتب الوباء الجارف المعروف « بالطاعون الاسود » الذي فتك فتكاً ذريعاً في آسيا وافريقيا واوربا سنة ١٣٤٨م . وكان من جملة ضحاياه ، والدا ابن خلدون .

من الاقطار ، لعدم اطّلاعي على احوال المشرق وأُممه ، لان الاخبار المتناقلة لا تفي كنه ما اريده منه (١ . والمسعودي انما استوفى ذلك لبعد رحلته ، وتقلّبه في البلاد ، كما ذكر في كتابه ، مع انه لما ذكر المغرب قصّر في استيفاء احواله ؛ «وفوق كل ذي علم عليم !» (٢ ومردّ العلم كله الى الله ، والبشر عاجزٌ قاصر ، والاعتراف متعيّن واجب . ومن كان الله في عونه تيسّرت له المذاهب ، وأنجحت له المساعي والمطالب . ونحن آخذون بعون الله فيما رمناه من اغراض التأليف ، والله المُسدِّد ، والمعين ، وعليه التُّكلان (٣ !

تصوير الحروف التي لا مقابل لها في العربية

وقد بقي علينا ان نقدّم مقدّمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغة العرب ، اذا عَرَضت في كتابنا هذا :

إعلم أن الحروف في النُطق ، كما يأتي شرحه بعد ، هي كيفيّات للاصوات الخارجة من الحنجرة ، تعرض من تقطيع الصوت بقَرْع اللهاة ، واطراف اللسان مع الحلق ، والحنك ، والاضراس ؛ او بقرع الشفتين ايضاً : فتتغاير كيفيات الاصوات بتغايُر ذلك القَرْع . وتجيءُ الحروف متمايزة في السمع ؛ وتتركّب منها الكلمات الدالّة على ما في الضمائر . وليست الامم كلّها متساوية في النطق بتلك الحروف . فقد يكون لأمّةٍ من الحروف

---

١) كتب ابن خلدون مقدّمته بعد ان ألف قسماً من كتابه ، في تاريخ المغرب والبَربر . اما تاريخ المشرق فلم يتشره الّا بعد ان عاش مدةً في مصر وزار سوريا .

٢) القرآن : (سورة يوسف : ٧٦) . — ٣) التُكلان : الاعتماد .

ما ليس لأمةٍ اخرى . والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً ، كما علمت . ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا ، وفي لغتنا ايضاً حروف ليست في لغتهم . وكذلك الافرنج ، والترك ، والبَرْبَر ، وغير هؤلاء من العجم . ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلحوا ، في الدلالة على حروفهم المسموعة ، باوضاع حروف مكتوبة متميِّزة باشخاصها ، كوضع الف ، وباء وجيم ، وراء ، وطاء ، الى آخر الثانية والعشرين . واذا عرَض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم ، بقي مُهمَلًا عن الدلالة الكتابية ، مُغفَلًا عن البيان . وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يكتنفه من لغتنا : قبله وبعده . وليس ذلك بكافٍ في الدلالة ؛ بل هو تغيير للحرف من اصله .

ولما كان كتابنا مشتملًا على اخبـــار البَرْبَر ، وبعض العجم ، وكانت تعرض لنا في اسمائهم ، او بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ، ولا اصطلاح اوضاعنا ، اضطُررنا الى بيانه . ولم نكتفِ برسم الحرف الذي يليه ، كما قلنا ، لانه عندنا غير وافٍ بالدلالة عليه . فاصطلحت ، في كتابي هـــذا ، على أن أضع ذلك الحرف العجمي بما يدلّ على الحرفين الذين يكتنفانه ، ليتوسّط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذينك الحرفين ؛ فتحصل تأديته . وانما اقتبست ذلك من رسم أهل المُصحَف (١ حروفَ الإشمام (٢،

---

١) المُصحَف : القرآن ، واهله : الذين ينسخونه ويعتنون به . —

٢) الإشمام : مصدر أشمّ الحَرَكَةَ اي اشار اليها دون ان يصوّت بها — ويَختص ، عند القُرّاء والنحاة ، بالحركات . وذلك بأن تُضَمّ الشفتان بعد الاسكان في المرفوع والمضموم للإشارة الى الحركة من غير صوت . وقد يقابل ذلك ما يتلونه ، في اللغة الفرنسويــة بحرف (e) خرساء . — اما ابن خلدون فهو يُطبّق

«كالصِراط» في قراءة خَلَف (١ ؛ فان النطق «بصَادِه» فيها مفخّم متوسّط بين الصاد والزاي. فوضعوا «الصاد» ورسموا في داخلها شكل «الزاي»، ودلّ ذلك عندهم على التوسّط بين الحرفين. فلذلك رسمت انا كلّ حرف يتوسّط بين حَرْفين من حروفنا، كالكاف المتوسّطة عند البَرْبَر (٢ بين الكاف الصريحة عندنا والجيم او القاف، مثل اسم «بُلُكّين». فأضعها كافاً وانقطها بنقطة الجيم واحدةً من اسفل ؛ او بنقطة القاف، واحدةً من فوق او اثنتين (٣ . فيدلّ ذلك على انه متوسّط بين الكاف والجيم او القاف. وهذا الحرف اكثر ما يجيئ في لغة البَرْبَر. وما جاء من غيره فعلى هذا القياس: أضع الحرف المتوسّط بين حَرفين من لغتنا، بالحرفين معاً، ليعلم القارئ انه متوسّط فينطق به كذلك. فنكون قد دللنا عليه. ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه، لكُنّا صَرَفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا، وغيّرنا لغة القوم. فاعلم ذلك ؛ والله، سبحانه الموفّق لا ربّ غيره !

الإِشمام على الحروف فيكون المقصود في عبارته: الإِشارة الى حرف دون لفظه، كما يشرح في المثل اعلاه.

١) خلف: (ابن هشام البزّاز) قارئ ومحدّث. توفي في بغداد سنة ٨٤٣ م.

٢) وهذه الكاف تقابل لفظ الحرف (g) القاسي. وقد اعتاد بعض كتابنا ان يمثلوها بـ «گ» – راجع فصلاً قيّماً في هذا البحث في مقدّمة الالياذة (ص: ٨٣–٨٨)

٣) بنقطة واحدة من فوق او اثنتين: قال ذلك لان اهل المغرب ينقطون القاف بنقطة واحدة من فوق ؛ فذكر المؤلف اولاً هذه الطريقة لكونه من المغرب. ثم اردفها بقوله: « او اثنتين » ليدلّ على نقط القاف في غير بلاد المغرب

فهرس